مزمور الراعي

تأليف

ف . ب . ماير

تعريب

القمص مرقس داود

الطبعة الثانية

لجنة خلاص النفوس للنشر

بسم الآب والابن والروح القدس
إله واحد. آمين

مطبعة الخلاص

مقدمة

إن رؤية قطعة رائعة من الفن معلقة على جدران أحد متاحف الفن وسط ازدحام المتفرجين تختلف اختلافاً كلياً عن رؤيتها بهدوء معلقة على جدران منزل فخم حيث يتوفر الوقت للجلوس ودراسة فكرة الفنان ، والتأمل فى الأنوار المختلفة التى تصورها ، نور الصباح المبكر ، أو نور الظهر ، أو نور الغروب البهيج .

ولعل التمتع بهذه القطعة الفنية يزداد عندما يقف فنان آخر بجانبها ويروى مقدار تأثيرها على عقله ، ويتحدث عن الجمال الرائع الذى خفى عليه فى بداية الأمر للنظرة الأولى السطحية العابرة .

ومن أجل هذه الغاية كتب هذا الكتاب ، لكى يتركز التفكير ثانية ـ فى هدوء سرير المرض أو هدوء مخدع الصلاة ـ فى هذا المزمور المنقطع النظير ، ولكى يعاد التأمل فى كلماته المألوفة فى ضوء الاختبارات المسيحية المستمرة النمو ، وربما لكى يتبين جمال غير ملتفت إليه ، وإذا ما تبين لا يسع المرء إلا أن يرى مبرراً جديداً لتقديم الشكر للروح القدس الذى أوحى بهذا المزمور ، مزمور الراعى ، لمرنم إسرائيل الحلو .

ف . ب . ماير

الفصل الأول

مزمور المزامير

(مز ٢٣)

يطلق البعض على هذا المزمور مزمور عصا الرعاية . إنه يتوسط بين مزمور الصليب ومزمور التاج . إن كان المزمور الثانى والعشرون يتحدث عن الراعى الصالح الذى مات ، والمزمور الرابع والعشرون يتحدث عن الراعى الرئيس الذى سوف يأتى ثانية ، فإن المزمور الثالث والعشرون يتحدث عن الراعى العظيم الذى يحفظ خرافه بحكمة لن تخطىء وعناية لن تكل . إنه ليس أجيراً . وهو لا يطلب أجراً . ولا يأخذ جزاءً . ولا يبالى بالنفقة . فالخراف له . وفى هذه الكلمات الحلوة نتعلم وجهة نظره نحوها اليوم فى كل دقة ومحبة .

يتحدث البعض عن هذا المزمور كعقيدة . سمعت عن أحد المفكرين أنه إذ أتعبته الأمور المرتبكة التى تثقل قلوب وعقول الكثيرين فى هذا العصر العجيب ، وإذ طُلب منه أن يدلى

بعقيدته بدأ يردد كلمات هذا المزمور بنبرات صوته المثيرة للعواطف ونظرات أسيفة . وعندما أكمل كل المزمور أضاف هذه الكلمات :

« هذا هو عقيدتى ، ولست فى حاجة لغيرها ، ولا أريد سواها . لقد تعلمت هذا المزمور من أمى ، وتعودت أن أردده فى كل صباح بعد الاستيقاظ من النوم أثناء العشرين سنة الماضية ، ومع ذلك لم أصل بعد إلى معرفة نصف معانيه، لأننى أكاد أكون قد بدأت فى تفهم الأوليات فيها . وأعتقد أنه عندما يحين وقت الوفاة فستكون المهمة لم تنته بعد . لكننى بنعمة المسيح سأتمسك بهذا المزمور كعقيدتى ، وسأجاهد لكى أؤمن به وأحيا به . لأننى أعرف أنه يقودنى إلى الصليب ويرشدنى إلى المجد » .

نعم ، هذه شهادة حقة . وكما أنه إذا حدَّق المرء فى جوهرة نفيسة رأى ينابيع من الألوان تتدفق من أعماقها ، هكذا عندما نتأمل فى أعماق هذا المزمور ، البسيط كترنيمات الأطفال والعميق كترنيمات رؤساء الملائكة ، نرى فيه الإنجيل مصغراً ، نرى نعمة الله منعكسة كانعكاس الشمس فى نقطة مياه الندى ، ونرى

ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب إنسان . عندما تقرأ فى كلمات هذا المزمور معنى الأناجيل تجد إنك قد حصلت على عقيدة منقطعة النظير يقبلها كل المسيحيين بلا تردد .

ويتحدث عنه الآخرون كأنه مرنم . أمامى الآن كتاب يصف هـذا المزمور بأنه مرنم متجول انتدبه الله ليتجول هنا وهنالك فى كل أرجاء العالم ، فيرنم ترنيمات شجية جداً حتى إن من يسمعها ينسى كل الأحزان التى كانت تعصر قلبه وتمزقه . هذا أيضاً حق ، فإن هذا المزمور يتحدث بلغة يستطيع أن يدركها البشر جميعاً . إنه يسحر القلب بكيفية تنفى عنه الأحزان التى تتحدى كل فلسفة بشرية وكل أفراح عالمية . إسمع بعض ما قاله عن هذا المزمور :

« إنه نفى عن القلب الكثير من الأفكار النجسة ، والشكوك المربكة ، والأحزان الكئيبة . إنه عزى الكثيرين من المساكين . إنه شدد عزائم الكثيرين من اليائسين . إنه سكب بلساناً وتعزيات فى قلوب المرضى . إنه افتقد المسجون ، وحطم قيوده ، وأخرجه من سجنه ـ كما أخرج الملاك بطرس ـ وأعاده

إلى بيته سالماً . إنه جعل العبد المسيحى أكثر حرية من سيده ، وعزى الذين تركهم حبيبهم حزانى ، ولم يكن حزنهم بسبب فقده بقدر ما كان لأنهم لم يلحقوا به . على أن مهمته لا تنتهى عند هذا الحد ، فإنه يسير مترنماً كل الدهور ولا يطوى جناحه حتى يتم آخر مؤمن سعيه وينتهى الزمن . عندئذ يطير عائداً إلى حضن الله الذى خرج منه ، ويهتف هتافاً ممتزجاً بكل الهتافات السماوية التى تجعل السماء ممتلئة بالموسيقى إلى الأبد » .

ويمكن تشبيهه أيضاً بقدس الأقداس داخل الهيكل الذى ارتفع عالياً كنخلة طويلة ، كما بناه سليمان والذى يتمتع بهدوء كامل . مهما اشتدت الضجة فى شوارع المدينة المقدسة الضيقة ، أو حتى فى دور الهيكل ، فقد كان هنالك دواماً مكان واحد هادىء هدوءاً تاماً ، حيث كان يبسط الملاكان الحارسان أجنحتهما فى هدوء فوق تابوت الله . كانت هنالك على الأقل راحة . ولو كان قد سُمح للكهنة بالبقاء فى ذلك المكان الهادىء مسكن العلىّ لكانوا يقيناً قد نسوا مشاغل الحياه وضجيجها تحت سحر تلك الراحة التى لا يعبر عنها . لم يكن ممكناً أن يدخله أى أثر

للاضطرابات أو الهموم أو القلق .

كل هذا نراه فى هذا المزمور موضوع تأملنا . هو واحة فى صحراء قاحلة . هو مظلة على سفح جبل يعسر التسلق عليه . هو مغارة فى الظهيرة اللافحة الحرارة . هو ركن منعزل للتأملات السماوية الهادئة . هو واحد من أقدس الأمكنة فى هيكل الكتاب المقدس . تعالوا هنا أيها المتعبون والثقيلو الأحمال . إجلسوا فى مكان الراحة هذا الظليل الهادىء ، فإن موسيقاه تبعد عنكم الأفكار التى تقضى على سلامكم . يا من اتخذتم لكم الرب راعياً أنتم فى أمان ومباركون . أيها القارىء العزيز ، ضع هذا الكتاب جانباً واقرأ المزمور ثانية بوقار إلى أن تكمل كلماته المألوفة ، وانظر إن كانت لا تصبح لك ملجأ تتكسر عليه العواصف دون أن تؤثر فيه .

ليس هناك موضع للتساؤل عمن كتبه . فإن كل آية تحمل توقيع داود . لكن السؤال الذى يصح توجيهه هو : متى وأين سمعته الأذن البشرية لأول مرة ؟ هل رنمه داود لأول مرة وسط جبال بيت لحم إذ كانت الغنم ترعى فى مراعيها ؟ أم إنه أُنشد

أولاً فى أذنىّ الملك الحزين المقطب الجبين ، الذى كان جبينه يختلف اختلافاً كلياً عن ذلك الوجه الجميل الصبوح الذى كان للغلام الراعى « الأشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر » (١ صم ١٦ : ١٢) . لعل هذا قد حدث ، لكن المزمور يتضمن من القوة والنضج والعمق مما لا يتفق مع الشباب الغض ، ولذلك فإنه خليق برجل تعلم الخير لأنه عرف الشر ، واختبر رعاية نعمة الرب وسط مشاغل الحياة البشرية المنوعة .

يقيناً أن هذه الكلمات رنمها لأول مرة شخص كابد آلاماً عنيفة ، وذاق كؤوساً كثيرة ، واضطر إلى أن يسلك طرقاً كثيرة محفوفة بالمخاطر والأشواك .

قيل فى إحدى الروايات الفارسية أن وزيراً خصص جانباً من قصره لذكريات أيامه الأولى قبل أن يرفعه الملك من حالته الوضيعة إلى مركزه الرفيع . فى غرفة صغيرة ، مجردة حتى من أبسط قماش يغطى أرضيتها ، وضع أدواته البسيطة التى كان يستعملها إذ كان راعياً للغنم : العصا ، الجراب ، الملابس الخشنة ، كوز الماء . وفى هذه الغرفة كان يقضى بعض الوقت كل يوم ، يستعيد فيه ذكريات حالته الأولى ، وذلك كوقاية من التجارب التى تحيط بالمرء وقت

العظمة العالمية . هكذا لم ينس داود الملك ما كان عليه داود الغلام الراعى . كانت هنالك غرفة فى قلبه تعود أن يعتزل فيها للتأمل والصلاة . فى هذه الغرفة كتب هذا المزمور الذى امتزجت فيه اختبارات رجولته الكاملة بذكريات شبابه الذى قضاه بين الغنم .

بقى علينا أن نضيف هذه الفكرة قبل أن نختم تأملاتنا هذه : فى هذا المزمور قوة تشفى من يلمسه ، لكن قوته ناشئة من أنه لا يتحدث عن الإنسان إلا قليلاً لكنه يتكلم عن الله كثيراً . تأمل كيف يركز كل آية فى شخص الله بأنه هو الذى يفعل هذا أو ذاك . هذه هى سياسة الحياة الحقيقية . إن عدم الإيمان أو الشك يضع الظروف بين الإنسان وبين المسيح فلا يعود يراه الإنسان ، كما فعل التلاميذ وسط ضباب الشك إذ « اضطربوا ، ومن الخوف صرخوا » (مت ١٤ : ٢٦) . أما الإيمان فإنه يضع المسيح بين الإنسان وبين الظروف ، فلا يعود الإنسان يراها . « كنت لا أبصر من أجل بهاء ذلك النور » (أع ٢٢ : ١١) . الشك يركز النظر فى الناس ، وفى الأشياء ، وفى الاحتمالات ، وفى الإمكانيات ، وفى الظروف . أما الإيمان فلا يشغل نفسه بهذه ، ويأبى أن يصرف وقته وينفق قوته فى التأمل فيها . إنه يركز

نظره فى الرب ، واثقاً أنه قادر أن يسد كل أعوازه ، وأن يرفعه فوق كل المتاعب والصعوبات .

أيها القلب المرتعب الخائف ، تطلع بعيداً ، وتطلع إلى فوق . حقاً إن متاعبك قد ازدادت بالتطلع إلى الصعوبات ومسبباتها . الآن ، كف عن كل هذا . لا تتحدث فيما بعد عن المدن المسورة والجبابرة الذين فيها ، عن الطرق الوعرة والأودية المظلمة ، عن الوحوش المفترسة واللصوص . بل تأمل فى محبة الراعى وقدرته وحكمته . المحبة التى لم تشفق على دمها . القدرة التى صنعت العالمين . الحكمة التى تحصى الكواكب . إن خلاصك لا يتوقف على ما أنت عليه بل على قدرة القدير . فى كل مرة تتطلع إلى نفسك تطلع إلى المسيح عشر مرات . لا تتحدث عن نفسك بل عن الله .

لا تتحدث فيما بعد عن دموعك ، وفشلك ، وخطاياك . بل تحدث عن كفاية المسيح ، وكيف كانت احتياجاتك هى الوسيلة لإظهار خلاصه . أنشد مرة أخرى الترنيمة القديمة التى تتحدث عن وعد الله يسد كل احتياجات البشرية بمحبته الرعوية . وفى كل آية من هذا المزمور ، مزمور الأطفال ، ومزمور الشيوخ ، تأمل فى كل ما يعد به الله أن يفعله .

الفصل الثانى

الرب الراعى

« الرب راعى فلا يعوزنى شىء »
(مز ٢٣ : ١)

انقضت ثلاثة آلاف سنة منذ رنم مرنم إسرائيل الحلو هذا المزمور عن عناية الله الرعوية . ثلاثون قرناً . هو وقت طويل . وفى هذه الحقبة الطويلة تحولت بقايا سائر مخلفات داود المادية إلى تراب بالرغم من العناية الفائقة التى بُذلت نحوها .

فالعود الذى لعبت به أصابعه وأخرجت به موسيقى سماوية شجية ، والراية التى تعود أن يرفعها باسم الرب ، وكتاب الناموس الذى تعود أن يتأمل فيه نهاراً وليلاً ، والسيف الضخم الذى قتل به جليات ، وغرفة النوم فى قصره التى انتقلت منها روحه لتنعم إلى صفوف مرنمى السماء — هذه كلها ترقد عميقاً وسط خرائب الدهور .

أما هذا المزمور ، فإنه بالرغم من قدمه السحيق ، وبالرغم من أنه قد رددته ألسنة ربوات البشر فى كل الأجيال المتتابعة ،

فلا يزال جديداً اليوم كأنه قد كُتب الآن . كلمات ثمينة . هى الكلمات الأولى التى نعلمها لأولادنا . ولعل الطفل يسوع نفسه تعلم أن يرددها باللسان العبرى إذ كان يحبو بجوار أمه فى الناصرة . وهى بين الكلمات الأخيرة التى نرددها يوم نودع أحباءنا الراحلين . إن المريض وهو يتلوى من المرض على فراشه ، والشهيد وهو يرى المقصلة مهيأة له ، والجندى فى نوبة حراسته ، والمسافر وسط الأخطار الكثيرة التى تحدق به — هؤلاء ، وغيرهم وغيرهم ممن لا حصر لهم ، وجدوا فى هذه الكلمات مناعة ضد الخوف ، ووجدوها حافزة لهم على تجديد الحياة وعلى إحياء الرجاء « الرب راعىّ ، فلا يعوزنى شىء » .

(١) « الرب » ، أى « يهوه » . وكان اليهود يفزعون من هذا الإسم حتى إنهم استعاضوا عنه بكلمة « الله » . كان لا يُنطق به إلا مرة واحدة فى السنة ، وذلك فى يوم الكفارة العظيم ، على أن لا ينطق به إلا رئيس الكهنة فى قدس الأقداس .

كلمة « يهوه » تعنى : الحى ، الكائن بذاته ، ال « أنا هو » . تعنى : الذى كان ، والكائن ، والذى يأتى ، الساكن فى الأبدية ،

الذى فيه حياة فى ذاته . كل حياة أخرى ، من أدنى المزروعات إلى رئيس الملائكة أمام العرش ، تعتمد عليه ، ومستمدة منه . كل حياة أخرى تذبل ، وتتغير ، وتشيخ . أما هو فإنه هو وحده الذى يبقى كما هو دون أن يعتريه أى تغيير . كل حياة أخرى هى نار يمدها هو بالوقود ، أما هو فإنه وحده الذى يكفى نفسه بنفسه . هذا الكائن الأسمى المقتدر هو راعينا . إرفع إليه قلبك فى وقار واتضاع وقل له « يا راعى إسرائيل أصغ . يا قائد يوسف كالضأن . يا جالساً على الكروبيم أشرق » (مز ٨٠ : ١) .

وإذ نسبح بأفكارنا وسط الأجيال الماضية نلتقى بشخصية مجيدة مجهدة كان شبح الآلام مقبلاً إليها . كان يتكلم من مكان قريب من المكان الذى أُنشد فيه المزمور لأول مرة منذ ١٢٠٠ سنة . هل هو اختلاس ، هل هو تجديف ذلك الذى نطق به ؟ كلا ، لكنه إنما طبق كلمات المرنم على نفسه وقال « أنا هو الراعى الصالح » .

أقرن الكلمتين معاً : الكلمة الجليلة التى تصف الله الأزلى ، وكلمة المخلص الرقيقة ، تجد لقب ربنا الخليق به : « يهوه يسوع » .

فلنقرأه فى مزمورنا ، ولنقل فى روح تقدير جديد لمعناه « يهوه يسوع راعىّ » . أية حاجة نحتاجها ولا نجدها فى هذا الراعى ؟ إنه كيهوه له كل سلطان . وكيسوع له كل عطف . كيهوه هو يعول كل العالمين ، وكيسوع هو حى إلى الأبد ليشفع فينا . كيهوه هو رب الكل ذو السلطان المطلق ، وكيسوع هو لا يزال يطأ طرق هذا العالم ، ساثراً بجوارنا ، يهمس فى آذاننا ، برقة وعذوبة ، هذه الكلمات الحلوة « لا تخف أيها القطيع الصغير » .

(٢) « راع » . كان يعقوب هو أول من نطق بهذه التسمية الرائعة لله ـ وكان يعقوب نفسه راعياً يوماً ما ـ إذ كان على فراش الموت فى مصر : فإنه إذ تطلع إلى ماضى حياته تحدث عن الله راعيه وقال : « الله الذى رعانى منذ وجودى إلى هذا اليوم » (تك ٤٨ : ١٥) . وبعد ذلك نرى نفس التعبير فى كل صفحات الكتاب المقدس إلى أن نأتى إلى صفحاته الختامية حيث نقرأ عن الحمل الذى يقود قطيعه إلى أنهار ماء الحياة .

إن الراعى الشرقى يحتل مركزاً فريداً بإزاء غنمه . وتقوم صداقة بينه وبين الخليقة العجمى التى تحت رعايته . ولن تجد مثيلاً

له بين الرعاة فى الغرب . فلنحرص على أن نتمتع بهذه العلاقة . فى الصباح الباكر يخرجها من حظيرتها إلى المراعى الخضراء . يجب أن يراقبها عن قرب طول النهار لئلا تُمس بأذى من الوحوش المفترسة أو من اللصوص . وهو يوردها إلى مياه الراحة ـ أو « المياه الهادئة » حسب الترجمة الانجليزية ـ لتشرب مطمئنة حيث لا يوجد تيار جارف يزعجها أو يعرضها للخطر . وفى الليل يعيدها إلى الحظيرة لتكون فى أمان . وفى فصل معين من السنة يأخذها إلى مراع بعيدة عن وطنه وعن المكان الذى يرتاده الناس ، حيث يعيش وسطها تلفحه أشعة الشمس فى النهار ويبتل بندى الليل . وإن عجز أحد الحملان عن متابعة باقى القطيع حمله فى حضنه . وإن ضل خروف واحد بحث عنه حتى يجده ، متتبعاً آثاره فى خصل الصوف التى تعلقت بالشوك . وإن داهمها الخطر خاطر بحياته . إن الرعاة فى الشرق يشبهون جنوداً حملوا السلاح للحرب ، فالبندقية معلقة على الكتف ، والطبنجة فى الحزام ، والعصا فى اليد .

هكذا يصبح الراعى وغنمه أصدقاء إذ يعيش معها بهذه الكيفية . إنها تعرفه وتلبى دعوته عندما يدعوها بأسمائها . بعضها

تتبعه ملاصقة له لخاصته المقربة له الواثقة من محبته . إنه يفعل كل ما يريد بأى واحد منها ، ويخرج ويدخل وسطها بكل سهولة دون أن يسبب لها أقل انزعاج .

كل هذا يصدق على ربنا يسوع المسيح ، راعى الخراف الأعظم . إن له قلب الراعى الممتلىء محبة طاهرة كريمة لم تحسب دمه ثمناً غالياً لفدائنا .

وله عين الراعى التى تلاحظ كل القطيع دون أن تتغافل حتى عن الخروف الهزيل الذى ضل الطريق وهام على وجهه فوق الجبال .

وله أمانة الراعى التى لا تتفكر لرعيته ولا تنبذهم ، ولا تتركنا فى يأسنا وحزننا دون أن تعزى قلوبنا ، ولا تهرب عندما ترى الذئب مقترباً .

وله قوة الراعى ، ولذلك يستطيع أن يخلصنا من فم الأسد ومن يد الدب .

وله رقة الراعى . لا يوجد حمل صغير لا يحمله . ولا يوجد قديس ضعيف لا يقوده برقة . ولا توجد نفس متعبة لا يهبها

راحة . هو يشفق كأب ، ويعزى كأم . ورقته جليلة القدر . بخوافيه يظللنا ويسترنا ، وتحت أجنحته نحن نحتمى .

آه ، لقد فعل أكثر من هذا . « كلنا كغنم ضللنا . ملنا كل واحد إلى طريقه » (إش ٥٣ : ٦) . كان القصاص قريباً جداً . لكن يسوع من عرشه رأى الخطر فتحنن على الجموع التى كانت كخراف لا راعى لها . ولأنه هو الراعى عرض أن يقدم حياته نيابة عنها ، والرب وضع عليه إثم جميعنا . وعندئذ سُمعت الدعوة المرعبة « إستيقظ يا سيف على راعىّ وعلى رجل رفقتى يقول رب الجنود . إضرب الراعى » (زك ١٣ : ٧) . وهو وضع نفسه عن الخراف (يو ١٠ : ١٥) وهكذا فداهم بدم العهد الأبدى (عب ١٣ : ٢٠) . سبحوه ، سبحوه .

(٣) « راعىّ » . إنه ليس مجرد راع ، بل « راعىّ » أنا ، ويا للتغيير العجيب الذى يحدثه حرف الياء .

إن الفرق بين المعرفة وبين التطبيق شاسع جداً . إن قلت « الرب راعٍ » فهذا يختلف كل الاختلاف عما إذا قلت « الرب راعىّ » . وإن قلت « يسوع مخلِّص » فهذا يختلف كل الاختلاف عما إذا قلت « يسوع مخلصى » . وحتى إن استطعت

أن ترى المخلص فى ضوء الحقيقة الواضحه — مثل توما — وزالت عنك كل الشكوك ، وجسيت يديه ، فإن هذا لا يفيدك كثيراً إلا إذا استطعت أن تقول : « ربى وإلهى » .

يسوع ينتظر حتى يصبح ملكاً لك . إنه لا يكتفى بأن يكون راعياً ، راعياً صالحاً ، راعى الملائكة القديسين ، راعى وأسقف نفوس الكثيرين الذين خلصوا . إن حنينه لك لا يستريح إلا عندما تضع يدك عليه وتقول « راعىّ » . وهذا أمر ميسور لك إن أردت . ليس هنالك ما يعوقك . لا تنتظر ولا تتباطأ متسائلاً عما إذا كنت ضمن خرافه . حوّل النظر من نفسك إليه ، وانظر إن كنت لا تراه جديراً بأن يكون راعيك . وعندما تستطيع أن تقول « راعىّ » تصبح هذه الكلمة علامة أكيدة على إنك صرت فى عداد الخراف التى يقودها وسط الحياة المعقدة إلى حظيرة السماء . « الرب راعىّ فلا يعوزنى شىء » .

(٤) « لا يعوزنى شىء » . إن خراف الرب تجد أعوازها متوفرة بغنى وسط كل أحزان الحياة ومتاعبها وضيقاتها . إن من يتبع العالم يصرخ فى اعتراف أليم « أنا أهلك جوعاً » (لو١٥:١٧) . أما القديس فإنه يتهلل واثقاً « يملأ إلهى كل احتياجكم بحسب

غناه فى المجد فى المسيح يسوع » (فى ٤ : ١٩) . إن أُجراءه يفضل عنهم الخبز ، فكم يكون خاصته ! . « الأشبال احتاجت وجاعت . وأما طالبو الرب فلم يعوزهم شىء من الخير » (مز ٣٤ : ١٠) .

قد يبدو بأن اختباراتك لا تتفق مع هذا التصريح الجليل . لكن لعلك لم تطلب بإيمان تلك المصادر التى كانت فى متناول يدك ، أو إنك لم تعرِّف الله عن طلباتك بالصلاة والتضرعات ، أو أن ساعة حاجتك لم تأت بعد ، أو إنك أسأت فهم حاجتك الحقيقية وأنك تطلب شيئاً قد يضرك . يجب أن تبحث لتعرف عما إذا كانت إحدى هذه النواحى هى السبب فى اختلاف اختباراتك عن هذا التصريح الجليل . لأن الأمر مقرر إلى الأبد إنه « ليس عوز لمتقيه » (مز ٣٤ : ٩) . هو قادر أن يزيدنا كل نعمة . وهو فعلاً يزيدنا كل نعمة . له المجد إلى الأبد .

آه ، ليتك تربط هذا التأكيد الجميل على قلبك . ومهما هددتك الأخطار ، ومهما هاجمتك الحاجة والعوز ، تقدم إلى الأمام ، أخطُ خطوة فى الظلام ، مشدداً قلبك بهذه الأنشودة العذبة « الرب راعىَّ فلا يعوزنى شىء » .

الفصل الثالث

المراعي الخضراء ومياه الراحة

« فى مراع خضر يربضنى إلى مياه الراحة يوردنى » (مز ٢٣ : ٢)

فى هذه السيمفونية الرعوية الجميلة نرى النغمة فى الآية الأولى التى تُنبئنا بأن من يعيش تحت رعاية الله الراعى الأعظم لا يعوزه شىء . أما الآيات التالية فإنها تحتفظ بالتناسق الموسيقى كاملة رائعة الجمال .

إن الحاجة الأولى التى لا تعوز من يتبع المسيح هى ـ كما تخبرنا هذه الآية ـ الراحة . هذه الآية تهب منها روح الراحة كما يتضح من مدلول كلماتها « فى مراع خضر يربضنى . إلى مياه الراحة يوردنى » .

يا له من منظر بهيج يُرسم أمامنا . الساعة هى ساعة الظهر فى حرارتها اللافحة . والجو حار يكتم الأنفاس . وكل الأرض ساخنة تكاد تخبز الخبز . والحجارة على الجبال تلسع الأقدام التى تلمسها . فى وقت كهذا ويل للغنم بدون راعٍ ، وويل للراعى إن لم يحتمِ فى ظل صخرة كبيرة أو غابة ظليلة أو مرعى غنى فى وادٍ منخفض .

لكننا هنا لا نجد شكوى من أى شىء مماثل . أنظر إلى النهر الصافى يتهادى بمياهه البلورية وسط السهل المنبسط . فى منبعه فى الجبال العالية تتدفق المياه فوق الصخور مرغدة ومزبدة من جرف إلى جرف وتندفع إلى الأمام فتتراكم على وجهها الرغاوى . لا يستطيع الخروف أن يشرب منها فى حالتها هذه ، لأن الغنم لا يمكنها أن تشرب من مياه تفور وتغلى وتندفع بمثل هذه السرعة . أما هنا فقد هدأت واستراحت وأصبحت تتهادى فى طريقها بخطى وئيدة ، وجهها هادىء رائق ، تنعكس عليه صورة كل زهرة وشجرة ونبتة وصخرة من الصخور الجانبية . بل يمكن رؤية كل حجر فى قاعه المراعى على جانبيه خضراء زاهية بصفة مستمرة تزينها ألوف الزهور فى الربيع . والجو يهب عليه نسيم النهر فيرطبه وينعشه ، والأذن تتلذذ إذ تسمع صوت المياه الموسيقى . لا يمكن أن تحل المجاعة حيث يجرى النهر . والغنم إذ تشبع من المراعى ترقد شبعانة مستريحة .

كلنا فى حاجة إلى الراحة . يجب أن تكون هناك فترات توقف عن العمل فى حياة كل واحد . فاليد لا يمكن أن تظل

ممسكة آلات العمل بصفة دائمة . والعقل لا يمكن أن يظل دائم التفكير . والمواهب والحواس لا يمكن أن تكون مشدودة بصفة مستمرة . والعمل بدون راحة يشبه ملء (زنبلك) الساعة أكثر من اللازم ، إذ أن (الزنبلك) ينكسر ، والساعة تتوقف عن العمل . يجب أن تكون هنالك فترات استراحة وسط مشاغل الحياة ، فيها تستريح الأعصاب المنهكة وتسترد قوتها . هنالك فكر أعمق مما يتصوره الكثيرون فى الوصية التى تأمرنا بالاستراحة يوماً فى الأسبوع .

لكن ليس هنالك جزء فى كياننا يصرخ بإلحاح لطلب الراحة مثل حياتنا الروحية . إن روح الإنسان ـ مثل الحمامة ـ لا يمكن أن تسير بصفة مستمرة دون أن تعطى راحة لأجنحتها . إننا لا يمكن أن نستمر فى الصعود على جبل الصعوبات الخشن أو عبور وحل الضجر والتبرم . يجب أن تكون لنا القدرة على أن نرقد فى المراعى الخضراء أو نمر برقة ولطف بجوار مياه الراحة . هنالك ثلاثة أشياء لازمة لكى تستطيع الخراف أو النفوس البشرية أن تستريح .

(١) شعور بالأمن . إن زئير الأسد ، أو نباح الكلب ، أو وجود ولد صغير كاف لحرمان قطيع الغنم من راحته وإدخال الرعب والفزع فى قلبه . وأنّى لنا بالراحة طالما كنا نشعر بأننا معرضون لهجوم الأسد الزائر ؟ من ذا الذى يستطيع أن يستريح طالما كان المصير غير مستقر .

لكن الرب يسوع المسيح ، راعينا ، قد حصننا ضد كل هذه . لقد التقى هو نفسه بعدو النفوس اللدود وحطم قوته إلى الأبد . إننا لن نستطيع أبداً أن ننسى ذلك الصراع الذى قام بين الإثنين: خبث الواحد ، وصراخ ودموع وقطرات الدم التى تصببت من جبين الآخر . لم يكن مصيرنا وقتئذ معلقاً على كفة القدر ، بل بالأحرى كان مصيرنا هو الهدف الذى لأجله خاض الموقف فى تلك الساعات الطويلة الأليمة . فى إحدى الكفتين كان هنالك الهلاك الذى بلا رحمة ، وفى الكفة الأخرى كانت الرحمة تتوق بأن تخلص حتى وإن كان الثمن هو الآلام المريرة والجروح التى ستبقى آثارها إلى الأبد . وأخيراً بذل الراعى الصالح نفسه من أجل الخراف . لم يكن أجيراً جباناً . بل بذل آخر نقطة من دمائه

الطاهرة . إن الخراف ملك له ، سُلمت إليه من أبيه ، وهو وضع نفسه من أجلها .

وفى هذا الموت قُتل عدونا . كأن بطلين من أبطال الغابات وُجدا ميتين بجوار بعضهما لأن الواحد ـ فى صراع الموت ـ جرح الآخر جرحاً مميتاً . على أن الله « أقام من الأموات راعى الخراف العظيم بدم العهد الأبدى » (عب ١٣ : ٢٠) . والآن هو حى ليضمن لنا سلامتنا . لقد تحمل كل ما كان ينبغى أن يتحمله من الآلام . لقد تغلب على كل مقاومة كان يمكن أن يلتقى بها . لقد ضمن لنا خلاصاً أبدياً من سكين العدو ، من مطالب الناموس الإلهى ، ومن نتائج خطايانا . « من هو الذى يدين . المسيح هو الذى مات بل بالحرى قام أيضاً » (رو ٨ : ٣٤) .

والآن ، أيتها النفس الخائرة الخائفة ، استريحى إن سِمَة الدم التى تحملينها هى علامة أكيدة على أنك فى أمان . لا يمكن أن يكون قد تحمل كل ذلك من أجلك لكى تهلكى الآن . فى كل ساعات الخطر أو الخوف رددى برقة اسمه قائلة « يسوع ، يسوع » فيعزيك فى الحال بحضوره وبصوته الذى تعرفه كل

الخراف ، وتصغين إلى تأكيده هذا « خرافى لن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدى » (يو ١٠ : ٢٨) .

« الرب حافظك » (مز ١٢١ : ٥) . « نعلم أن كل من وُلد من الله لا يخطىء بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسه » (١ يو ٥ : ١٨) .

(٢) كفاية من الطعام . إن الخروف الجائع لا يمكن أن يرقد ولو دفعته إلى ذلك بالقوة . أما الراعى الذى يستطيع أن يوفر له المراعى الخضراء الغنية فإنه يتمكن من أن يجعل أشد الخراف فلقاً يرقد مطمئناً بين العشب الأخضر حيث تستقر العصافير على جزته ويطن حوله النحل .

إننا لن نستطيع أن نجد راحة طالما كان جوع النفس باقياً دون أن يجد ما يشبعه وعطشها لم يجد ما يرويه . والعجيب أن الناس بطيئون جداً فى إدراك هذا . ومع ذلك فإن البشرية تعانى من فراغ النفس الداخلى . والناس إذ يشعرون بجوعهم يحاولون عبثاً أن يشبعوه بالخرنوب الذى تأكله الخنازير . ولا يوجد ما ينزع قلق الإنسان الداخلى إلا صوت المسيح القائل « من يُقبل إلىَّ فلا

يجوع ، ومن يؤمن بى فلا يعطش أبداً » (يو ٦ : ٣٥) .

آه ، يا للبركات التى ننالها إذ نأكل جسد المسيح ونشرب دمه فى وقار وخشوع وشركة عميقة . هذه هى الحياة . هذا هو الشبع الأبدى . هنا المراعى الخضراء وأنهار مسراته .

يمكن تشبيه كلمة الله بالمراعى الخضراء . فيها شبع لكل نفس جائعة . عندما نأكل منها نجد كفايتنا ويفيض عنا الطعام . وهذه المراعى لن تنضب ولن تجف . هى خضراء اليوم كما كانت يوم بدأها الروح القدس . بالرغم من تأملات جماهير المفسرين فيها ، ودراسة ربوات المسيحيين لها ، فلن يتأمل فيها المرء بمحبة وطاعة دون أن يجد فيها غذاء وقوة .

هنالك حقائق روحية كثيرة تمثلها مياه الراحة . إن يوم الرب هو مياه الراحة ، وكذلك ساعة العبادة ، وأيام العطلة الصيفية ، وأيام الانتعاش فى الحياة الروحية ، حيث يبدو كأن الشيطان قد نسى بأن يحرب . فى أوقات كهذه يحلو لنا أن نعرف بأن ذاك الذى قادنا من قبل إلى الحرب أو إلى العمل يقودنا الآن إلى الراحة . وفى بعض الأحيان ، فى وسط زحمة الحياة وضغط

مشاغلها ، يومىء إلينا لكى نستريح معه قليلاً فيتوفر لنا الوقت لنأكل . إنه يضع فى قلوبنا أن نحفظ يوم الرب ونكون فى سلام . يجعلنا نشرب من النهر الذى بجانب الطريق ، وعند الظهر نستريح مع قطيعه فى ظل الصخرة العظيمة فى أرض معيبة (إش ٣٢ : ٢) .

(٣) طاعة لقيادة الراعى . إن أرقّ راعٍ لا يمكنه أن يجعل غنمه تخلد إلى الراحة إلا إذا كانت تتبعه . أما إذا تلكأت فى المسير خلفه ، أو إن ضلت عنه ، أو إن اتخذت سبلها المختلفة ، فإنها لا بد أن تفشل مهما كانت مقاصد الراعى صالحة . قال المسيح « خرافى تسمع صوتى وأنا أعرفها فتتبعنى » (يو ١٠ : ٢٧) .

إن هذا المحك ، أى اتباع قيادة الراعى ، ضرورى جداً . ليس عجيباً أن نفقد راحتنا إن كنا نجرى هنا وهنالك متبعين أهواء قلوبنا الشريرة . إننا نرسم لأنفسنا خططاً بدلاً من اتباع خطته ، ونصرّ على تدبير أمورنا بأنفسنا ، وأيامنا تزدحم بالكثير من تفكيرنا بالإضافة إلى القليل من فكره . إننا لا نتطلع إلى فوق كثيراً لنرى أى طريق نسلكه وماذا يردنا أن نفعل . لهذا

نفقد راحتنا . إن أردنا أن نسير إلى ينابيع المياه الحية التى تتغذى من الينابيع السماوية فعلينا أن نتبع الحمل أينما سار .

آه ، لا تيأس من رحمة الله كأنها مستحيلة . إن الراعى الصالح ينتظر لكى يربضك بجوار المراعى الخضراء ويسقيك جرعات طويلة عميقة من الراحة . ثق فيه فقط . سلم إليه كل ما يعطل راحة روحك حتى ولو كان المعطل تافهاً جداً كلمة بعوضة ، وتقبل من يده راحته الحلوة العميقة . طالبه بأن يربضك بطريقته اللطيفة الجميلة .

الفصل الرابع

« يرد نفسى »

(مزمور ٢٣ : ٣)

هاتان كلمتان من أثمن ما حواه هذا المزمور الذى لا يقدر بثمن. إنهما تتفقان مع اختبارات الكثيرين من أولاد الله المقتنعين اقتناعاً عميقاً بحاجتهم إلى نعمة الراعى الصالح التى ترد نفوسهم. لو أنه كان هو الوحيد الذى نتبعه، ولو كنا نطيع وصاياه دواماً طاعة كاملة سريعة لما كانت هناك حاجة لرد النفس. لكننا لا نطيع دواماً القيادة السماوية، بل نرتد بسهولة إلى حالة الفتور والتراخى، ولذا فمن الضرورى أن تُرد نفوسنا.

إن أكبر باعث للانحراف الروحى هو إهمال كلمة الله وإهمال العبادة الفردية. طالما كانت روح الإنسان متصلة بروح الله، وطالما كان الكتاب يُدرس بانتظام وبروح الصلاة، وطالما كانت هنالك فرص مستمرة للخلوة والتأملات الروحية، فلابد أن يتوفر بصفة مستمرة النمو فى النعمة وفى معرفة ومحبة الله.

إن كانت الأنابيب الذهبية تُحفظ نظيفة (غير مسدودة) فإن الزيت الذهبى يمر منها بصفة مستمرة ليغذى شعلة الحياة المقدسة دون معطل. إننا نعلم هذا كله. لقد تذوقت قلوبنا مراراً كثيرة المنعشات الحلوة والتشجيعات المقدسة التى تنبعث من تلك الساعة الهادئة المباركة التى تُقضى فى حضرة العلى. نحن نعلم أنه لا يوجد شىء يجعل للحياة قيمة بقدر الشركة مع الله. ومع ذلك فهذا هو الشىء الوحيد الذى نميل إلى تأديته بسرعة أو إلى إهماله. وعندما نقرأ كلمة الله فإننا نقرأها كتأدية واجب، وعندما نصلى صلاة الصباح أو المساء فإننا نؤديها بفتور شديد وبعدم اكتراث وكان خيراً أن لا نصليها بالمرة. فهل نستغرب إذاً إن كانت الحياة الروحية تضعف وتحتاج إلى يد قوية حكيمة لتردها ؟

والخطية التى لم يُعترف بها سبب آخر لسرعة ضعف الحياة الروحية وانحرافها. إن وُجد هنالك سبب لعدم الاتفاق بين الأصدقاء ـ مهما كان تافهاً ـ فإنهم لا يميلون إلى أن يجتمعوا معاً. وإن اجتمعوا بدا عليهم الفتور والتحفظ فى الكلام خلافاً لما كان يبدو عليهم فى بداية الأمر من الدالة وقوة المحبة، ولا يمكن أن

تتحد القلوب إلا بعد فحص سبب الخلاف والاعتراف بالخطأ وتفسير سوء التفاهم . وهذه الحقيقة تنطبق على علاقة النفس مع الله. فإننا عندما نخطىء يكون هنالك بصفة عامة ميل للاقتداء بآدم وحواء فى الاختباء وراء أشجار الجنة . وهذه هى تجربة الشيطان .

كانت أسعد ساعة فى ذلك النهار هى التى سُمع فيها صوت الله يدعوهما لتجديد الشركة معه والتحدث إليه ، وكان ذلك الصوت كنسيم المساء العليل الذى يبعث انتعاشاً بعد حرارة النهار اللافحة . لكن الخطية تجعل النفس لا ترحب بفكرة إعادة الشركة مع الله . لقد تعلمنا مراراً أن الخطية التى لم يُعترف بها تطرح ظلمة كثيفة على شركتنا مع الله ، وتجعلها ثقيلة جداً ، وتجعلنا عديمى الاكتراث بها . فنبدأ بأن نستبدل القلب السليم البسيط بالقلب الملتوى ، وتصبح صلواتنا مجرد الصلوات الشكلية . وإن لم يُعترف بالخطية وتُترك فى الحال فإن الشقة تزداد اتساعاً وتتعطل الحياة كلية .

والحياة الاجتماعية العالمية مصدر آخر لضعف الحياة الروحية وانحرافها . من المستحيل أن نصرف الوقت الطويل فى الأحاديث التافهة ، والمسامرات الفارغة ، والمزاح والسخرية والكتب العاطلة ،

وملذات المجتمع الطائشة ، دون تعريض قداسة النفس إلى الخطر . لا يستطيع الإنسان أن يلمس جناح الفراشة دون أن تلصق بأصابعه ذرات دقيقها . ونحن لا نستطيع أن نعيش بصفة دائمة فى جو مدنية العالم الزائفة دون تضحية الكثير من قداسة النفس وهى أثمن مواهب الله .

طبيعى أنه إن أرسلنا الرب يسوع إلى العالم لخدمته فيه فإنه لابد أن يحفظنا هناك . أما إن اخترنا نحن العيشة هناك فإن حياتنا الروحية سرعان ما تضعف وتنحدر ، كما تفقد فتاة الريف جمال طلعتها متى عاشت بصفة دائمة فى جو المدن الخانق .

واهمال بعض الوصايا المعينة يؤدى أيضاً إلى إضعاف الحياة الروحية مهما كانت قوية . لو كان كل المسيحيين الذين يتمتعون الآن بوصايا المسيح يطيعونها لتمتعت الكنيسة بنهضة قوية جداً . وقد تلتقى ببعض المسيحيين الذين يقولون لك أنهم كانوا « يتدربون » تدريباً عميقاً فى بعض الأمور . وماذا تعنى كلمة « تدريب » هذه ؟ هل تعنى بأن المسيح كان يمتحنهم بوصية معينة ، وأنهم كانوا فى الواقع يقاومونه مفضلين طريقهم هم لا طريق الله ؟ وإن كان هذا التدريب

قد توقف فهل هنالك مبرر آخر سوى هذا؟ وهو أن الرب الرحيم تلقى منهم الرفض الصريح ، ولذا فقد أصبح غير مُجد أن يلح على النفس العنيدة ، ومن أجل هذا تركها؟ إنها قد تخلص « كما بنار »، لكنها لا تستطيع أن تدرك عمق محبته ، ولا يمكن أن يستخدمها فى أجل خدماته .

هنالك علامات كثيرة لضعف النفس وانحرافها . هناك القلق، وروح التذمر ، وعدم المبالاة بمصالح ملكوت المسيح ، وعجزها عن الشهادة للمسيح أو الاحتجاج ضد الخطية ، وعدم ميلها إلى الاعتراف بأنها قد تغيرت عما كانت عليه من قبل ، وعدم استجابتها لكلمة الله التى يكرز بها ،ونفورها من اختبارات الآخرين الذين يعيشون فى شركة سعيدة مع الله . وكما نلتقى ببعض أشخاص مصابين بأمراض خطرة لكنهم يرفضون أن يعتقدوا بأنهم كذلك ، ويرفضون أى اقتراح يقدمه أصدقاؤهم لاستدعاء الأطباء لعلاجهم ، كذلك نرى بأن إحدى العلامات لانحطاط الحياة الروحية وانحدارها هى محاولة نبذ كل فكرة توحى بأن هذه هى حالتها حتى ولو كانت جرثومة المرض تعمل بشدة للقضاء على الحياة.

بعد ذلك يأتى الاعتراف الأليم ـ الذى يُقدم بعد مرور السنين ـ بأن الحياة قد تغيرت عما كانت عليه . وبعد ذلك يلى الاستنتاج الأسيف بأن الأمور قد تعقدت ولا يمكن إصلاح الحياة الآن .

فى مثل هذه الحالة ليس أمامنا إلا أن نلجأ لنعمة المخلص التى ترد النفس . الطبيعة مليئة بعمليات تجديد كثيرة . إن حدث تشقق فى جانب الجبل بدأت الطبيعة تملأه فى الحال بالحشائش والأعشاب. إن حدث جرح فى الجسم وتصبب منه الدم بدأت الطبيعة تملأ موضع الجرح حتى يعود الجلد إلى حالته الطبيعية . وحتى إن حدثت ثغرة فى الأسرة بفقد أحد أعضائها الذى كانت حياته تملأ البيت ، وصارت وفاته خسارة كبيرة للأسرة لا تعوض ، بدأ الزمن بقوته الشافية يصحح الوضع ويملأ الثغرة .

هكذا الحال فى دائرة الحياة الروحية ، فإن روح الله يرف بصفة مستمرة فوق قلوب البشر ليعمل عمله المبارك ، عمل الإصلاح ورد النفوس . عندما يضل خروف من القطيع فإنه يسعى وراءه حتى يجده ، ويرده إلى موضعه بين باقى الخراف . عندما تُفقد قطعة واحدة من مجموعة جواهر تاجه ، عندما تُفقد لؤلؤة واحدة من

صدرة القضاء ، فإنه لا يستريح حتى يردها إلى موضعها . عندما يذهب ابن واحد إلى الكورة البعيدة فإن فرحه يبطل حتى يعود.

أيها المخلص الرحيم الشفوق الرقيق القلب ، ما أشد لهفتك فى متابعة هذه الخدمات الرحيمة لأبنائك الضعفاء الذين لا يستحقون منها شيئاً .

المسيح يستخدم خدمات كثيرة لرد النفوس. قد تكون أحياناً كلمة من صديق أو خادم الإنجيل . أو قد تكون ترنيمة تحمل رائحة عطرية من قلب طاهر وتتحدث عن ماضٍ سعيد . أو تكون عبارة أو جملة فى كتاب دينى . كثيراً ما كانت هذه الخدمات على هذا المنوال . قد تكون بعيداً فى الريف ، تسير وحيداً كئيباً ، فتشرق أشعة الشمس فجأة ، أو تستمع إلى ترنيمة جميلة ، أو تحس فجأة بتأثير نعمة الله التى تمس أعمق أوتار القلب وتلينه وتدفعه إلى التوبة والصلاة . ألا يماثل هذا ما اختبره بطرس عندما ألقى عليه المسيح نظرة دفعته إلى أن يخرج خارجاً ويبكى بكاء مراً ، وكانت هى الخطوة الأولى لرد نفسه ؟

على الذين يريدون أن يفهموا كل فلسفة رد النفس أن يقرأوا الرواية العجيبة عن الطريقة التى بها رد الراعى الصالح نفس رسوله الذى أنكره . كل ما نستطيع عمله هنا هو أن نعدد الخطوات التى اتخذها السيد فى هذه العملية . إنه صلى من أجله ، وأنذره محذراً . ومن وسط الجماعة القاسية القلب التى احتاطت بالسيد ومثلت به « التفت ونظر إلى بطرس » ، لا بغضب ، ولا بقسوة ، بل بأرق علامات التوبيخ . ثم حمّل الملائكة رسالة خاصة ليأمروا النسوة لدعوة بطرس بين الباقين فى صباح يوم القيامة ، مبيناً بذلك كيف كان يفكر فيه كل وقت آلامه . والتقى به وحيداً يوم قيامته وسمح له بأن يعترف بحزنه المرير بحرية لا يعطلها أى واحد إذ كان وحيداً. وأعطاه فرصة للاعتراف بمحبته له ثلاث مرات لكى يغسل خطية الانكار المثلثة . وليس هذا كله بأكثر مما يفعله لأى واحد منا .

آه ، لا تدع الأيام أو الأسابيع تمر دون أن تطلب نعمته التى ترد النفس . أطلبها الآن ـ كما أنت ـ واثقاً فيه كل الثقة . إذ تكون ذكريات الخطية لا زالت حديثة العهد تطلع إليه وأسرع فى طلب المغفرة ، وفى نفس اللحظة توسل إليه بأن يعيدك سريعاً إلى نفس

المكان الذى كنت تحتله قبل سقوطك . وحتى إن كنت لا تشعر بفرح استجابة الصلاه تهلل فى ثقة الإيمان وردد القول « يرد نفسى » .

نعم، وللذين يقدمون هذا الطلب يوجد وعد آخر يزيد الأول تأكيداً وهو هذا : « وأعوض لكم عن السنين التى أكلها الجراد » (يوئيل ٢ : ٢٥) ، فيعيد إلينا الفرص والامتيازات التى كان يبدو بأننا قد خسرناها إلى الأبد .

قيادة الراعى

« يهدينى إلى سبل البر من أجل اسمه » (مز ٢٣ : ٣)

« يهدينى » . يا لها من حلقة اتصال عجيبة تلك التى تصل بين المتكلم وبين من يتحدث عنه . يبدو بأن الهوة بين الراعى فى مجده وبين خروفه الضعيف المسكين هوة لا قرار لها . لكننا نرى عليها قنطرة تصل بين طرفيها ، هى الكلمة الحلوة الرقيقة « يهدينى » . كما أن الراعى فى الشرق يتقدم خرافه دواماً ليتبين المراعى الخضراء ويتنكب عن الطريق الصخرى ، هكذا أيضاً يسوع فإنه يسير دواماً أمام النفس التى تثق فيه وتتكل عليه وتحبه . ومهمتنا هى أن نحرص على أن تكون المسافة بين خطواته وخطواتنا قليلة جداً .

يجب أن نرتضى قيادته . هناك تهور طبيعى فينا يدفعنا إلى الأمام لكى ندبر لأنفسنا . أليس هذا هو الحاصل فعلاً ؟ ومن هذا ينشأ الكثير من التهيج والغضب والتذمر والفشل فى الحياة . إننا نتوهم بأننا نستطيع أن ندبر لأنفسنا تدبيراً أفضل من تدبير المسيح .

ونتوهم بأنه قد تكون هنالك أشياء خارجة عن دائرة إرادته تستحق أن نسعى إليها . إننا نميل أن نسبقه فى المسير ، أو نتباطأ وراءه ، أو ننحرف إلى اليمين أو إلى اليسار فى طلب المراعى. وقد يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لكى نتعلم أن مكان الأثمار والبركة هو فى اتباع قيادة المسيح . ونحن نميل إلى اتباع ما تمليه علينا أهواؤنا بدلاً من أن نتساءل عن المكان الذى يريدنا المسيح أن نكون فيه ، أو المكان الذى يريد المسيح أن يقودنا إليه .

يجب أن يكون مبدأنا الوحيد فى الحياة هو أن نكون واثقين إننا نتبع الراعى بثبات أينما سار . لقد أكد لنا بأنه « متى أخرج خرافه يذهب أمامها والخراف تتبعه » (يو ١٠ : ٤) .

هذه الكلمات تضع على إيماننا التزامات كثيرة . قديماً رأى الرسل يسوع أمامهم وهو صاعد إلى أورشليم ، فتبعوه فى خوف . أما الآن فهذا مستحيل. فإننا لا نستطيع أن نراه بالجسد . إننا نحب ذاك الذى لم نره . ونتبع ذاك الذى لا نستطيع أن نبصره . لكن إن كان لا يمكن أن يُرى كالهواء ، أو كالجاذبية التى بها تقود الشمس الأجرام السماوية فى الفضاء ، إلا أن قيادته واضحة جداً يستطيع أن يدركها القلب المحب الأمين .

ونحن نستطيع أن نتبين قيادته بطرق كثيرة . نتبينها فى مثاله الذى تركه لنا ، وفى توجيهات نصائحه المتضمنة فى الأناجيل ، فى نصيحة صديق ، فى رسالة يوجهها إلينا فى عظة ، فى آية ترددها الذاكرة . ونتبينها كذلك فى إيحاءات الروح القدس الداخلية التى لا نعلم متى تأتى ، ولا إلى أين تحملنا . فى بعض الأحيان ينفتح أمامنا الطريق بكيفية عجيبة مع أنه كان يبدو مغلقاً ، كما لو كانت سفينة تشق طريقها وسط مجموعة من الصخور فتجد أخيراً أمامها مياهاً صافية بعيدة عن الصخور التى تهددها . وفى أحيان أخرى يتملكنا هاتف غريب ، وبعد تفكير سليم وصلاة عميقة نرى أنفسنا مدفوعين لاتباعه .

وهذه هى النصيحة الوحيدة التى نقدمها بشدة : إن كنت لا تعرف أى طريق تسلكه فانتظر حتى تشعر بقيادة الراعى الصالح . إن حياتك تهمه جداً ، وهو يعنى بكل خطوة تخطوها . ومن الخطأ الفاضح أن تتصرف دون أن تكون متأكداً مما يريدك أن تفعله . وإن كنت لم تتأكد بعد من ذلك كان هذا دليلاً على أن الوقت لم يأت لكى تتحرك . إنتظر فى المكان الذى أنت فيه . وعندما

تنتظر فإنك تتبين الطريق واضحاً ، ولن يتأخر الإعلان لحظة واحدة .

آه ، لا تقل بأنك لا تستطيع أن تعرف إرادته . لقد كنت دائماً بطيء الفهم ، وكنت تتخبط فى تفكيرك لا تستطيع أن تتبين أبسط الاتجاهات . لكن بلادة الذهن لا تهم المسيح كثيراً . هو يستطيع ، هو يريد ، أن يستخدمك كما أنت . إن كان لا يقدر أن يجعلك تفهم بهذه الطريقة فإنه يقدر أن يجعلك تفهم بغيرها . ومهمة الراعى هى أن يقود الخراف المطيعة قيادة صالحة . والشىء الوحيد الذى يعوق قيادته هو بلادة القلب والإرادة . إننا كثيراً ما نرفض انتظار الوقت الذى عينه هو ، وكثيراً ما نتهور متعجلين الوقت .

فى الآية السابقة يصرخ المرنم بأن الراعى يوردنا بجوار مياه الراحة (أو المياه الهادئة) . ولعل هذه تشير إلى أنه عندما تتمزق الأقدام وتتوتر الأعصاب بسبب تسلق الجبال الصخرية ، أو عندما يكون الطريق وسط أودية عميقة رطبة تكتنفها غابات كثيفة وصخور قاسية ، يكن الخروف حينئذ سائراً حسب هواه بعيداً عن قيادة صاحبه الرحيمة . ولذلك يعود المرنم إلى التشبيه ثانية ويخبرنا

بأن هنالك طرقاً أخرى يقودنا الراعى عن طريقها إلى الوطن . لا بجانب المياه الهادئة دواماً ، بل فى بعض الأحيان بجوار المياه المتدفقة المندفعة . لا فوق الحشيش الأخضر دواماً ، بل فى بعض الأحيان فوق الطرق الجبلية . لا فى الشمس المشرقة دواماً ، بل أحياناً فى وادى ظل الموت . لكن مهما كان الطريق فهو الطريق القويم ، هو الطريق المؤدى إلى الوطن .

وقيادة المسيح هى دواماً فى « سبل البر » . وسبل البر هذه هى الطرق القويمة . عندما نتطلع إليها فيما بعد من فوق الارتفاع الذى قادتنا إليه ندرك أنها حقاً كانت طرقاً قويمة .

قد تتردد فى قبول هذا . قد تقول بأنك لا تقدر أن تشعر بأن طرق الله معك كانت قويمة . لأن غموضها يربك عقلك . ويكاد غموضها وصلابتها ومطالبها القاسية تطوحك إلى اليأس . وأنت إذ تعترف بهذه المشاعر لله فإنه لا يتعجب منها ، لأنه يشفق علينا جداً ، « لأنه يعرف جبلتنا . يذكر أننا تراب نحن » (مز١٠٣ : ١٤) .

حذار من أن تحكم على طرق الله وهى لا تزال فى سبيل الإعداد والتمهيد . إنتظر حتى يكمل رسم الخطة . إنتظر حتى يكمل

صنع قطعة القماش فتستطيع أن ترى وجهها مزركشاً جميلاً . إنتظر حتى تترك الوادى وتصعد إلى قمة الجبل . إنتظر حتى يدعوك الله ويكشف لك عن مقاصده فى نور الأبدية .

وفى نفس الوقت لتكن لك ثقة فى الله كل « آثاره تقطر دسماً » (مز٦٥ : ١١) . « كل سبل الرب رحمة وحق » (مز٢٥ : ١٠). إن كان صحيحاً أنه يجعل « فى المياه القوية مسلكاً » (إش٢٣:١٦)، فإنه صحيح أيضاً أنه « يهديهم طريقاً مستقيماً ليذهبوا إلى مدينة سكن » (مز ١٠٧ : ٧) . ينبغى أن لا نحكم على الله طالما كان عمله لم يكمل بعد . لنصبر حتى تأتى النهاية وتبرر الطريق الذى سلكناه . وعندما يحل فجر الأبدية سوف نتبين بأن الله لم يكن ممكناً أن يقودنا فى طريق آخر أكثر أمناً من الطريق الذى سلكناه .

ليت لنا الإيمان الذى به نستطيع فى كل ظرف ، فى كل تجربة ، فى كل محنة ، فى كل ضيق ، أن نتطلع إلى وجه قائدنا ونقول : هذا هو الطريق القويم يا راعى الخراف الأعظم ، فقدنى إلى النهاية .

قدنى إلى النهاية يا عمانوئيل
فوق المستنقعات ووسط السيول

فوق الصخور وفى السهول
حتى ينتهى الليل

لكننا لسنا فى حاجة إلى أن نطلب منه هذا . فإنه ملتزم بإتمامه من أجل اسمه العظيم . « يهدينى إلى سبل البر . من أجل اسمه » . أذكر كيف كان يشوع غيوراً على كرامة ومجد الله . وكم من القديسين رددوا كلماته العظيمة ولا زالوا يرددون « ماذا تصنع لاسمك العظيم » (يش ٧ : ٩) . يدل اسم الله على كرامته وصفاته . وعندما نطق النبى بهذه الكلمة كان يقصد أن يقول : إن كرامتك وصفاتك مهددة بالخطر ، وإن قيادة القديسين الصحيحة يضمنها ثبات صفاتك وكرامتك .

ما هو اسمه ؟ « ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام » (إش ٩ : ٦) .

« عجيباً » إذاً فلنا أن نطالب بعمل قوته العجيب لكى يهيمن على كل شىء فيسيره لخيرنا .

« مشيراً » . ولنا أن نعتمد على حكمته التى لا تخطىء لكى ترسم خطة تملأ السماء إعجاباً .

« إلهاً قديراً » . إذاً فهو مطالب بأن لا يعمل شيئاً لا يتفق مع كماله الإلهى ومجده الإلهى .

« أباً أبدياً » . إذاً فهو مطالب بأن لا يتصرف بأقل من رقة الأب مع بنيه .

« رئيس السلام » . إذاً فهو مطالب بأن يتصرف وفق حلاوة ومحبة قلبه ، وفق ذكريات صليبه ، وفق بركة سلامه .

« من أجل اسمه » . يا لها من حجة قوية . وبها نتحول من النظر إلى قلب الإنسان لكى ننظر إلى قلب المسيح ، واثقين بأنه لا يمكن أن ينكر نفسه ، أو يتنكر لصفاته ، أو يفعل شيئاً لا يتناسب مع محبته الرقيقة لمن مات من أجلهم .

أيها الراعى العجيب ، أخبرنا عن اسمك إذ تتقدمنا وتقودنا عن طريق جثسيمانى والجلجثة إلى بستان القيامة وجبل الصعود . وإذ نتلقى ردك الممتزج بالمحبة سوف نثق فيك ونُنتزع منا كل خوف ، سوف نتبعك أينما سرت ، ونؤمن بأننا سوف نجد بأنه لن تكون خطوة واحدة غير متفقة مع قيادتك الخليقة بقلب الله المحب الحكيم القوى الرقيق .

الفصل السادس

وادى ظل الموت

« أيضاً إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معى » (مز٢٣ : ٤)

فى كل الكتاب المقدس لا توجد آية مألوفة اكثر من هذه . لا توجد شخصية فى الكتاب المقدس قد تركت تأثيراً اكثر بقاء ودواماً من تأثير هذه الآية . إن الصورة التى تصور نهاية حياتنا بوادٍ مظلم فى نهاية طريقها المنير لا زالت عالقة بذاكرتنا منذ تعلمنا أن نردد هذه الآية فى الصغر . ولقد كانت هذه الآية آخر ما نطق به الملايين من القديسين ، ولعلها سوف تكون آخر ما ينطق به الكثيرون ممن يقرأون هذه الكلمات ، إلا إذا أتى الرب أولاً وأعفينا من اجتياز وادى الموت ، وخطفنا لملاقاته فى الهواء .

يخيل إلىَّ بأننى أرى ذلك الوادى الآن . فالراعى يقود خرافه نحو حظيرتها وسط مراع خضراء غنية وأمكنة هادئة مريحة . وفجأة يبدأ الطريق فى الانحدار إلى وادٍ سفلى . على أحد الجانبين هوة عمودية متصلة بقاع النهر الشديد الانحدار حيث تندفع المياه

بشدة وتنكسر على صخور مسننة . وعلى الجانب الآخر يرتفع الجبل بأشجاره الظليلة . لا يزال الطريق ينحدر إلى أسفل إلى أن يصل إلى ممر عميق وضيق مسقف بصخور تكاد تلمس رأس من يمر فيه ، أما الأشجار فإن فروعها متصلة بعضها بالبعض . وهـذا الممر مظلم جداً حتى فى وقت الظهيرة . والذى يلبث هنالك قليلاً بعد الغروب تعتريه قشعريرة شديدة . وبطول ذلك الممر تكمن الوحوش المفترسة . هـكذا هو وادى ظـل الموت ، الذى اجتازه مرة الراعى العظيم وحيداً ، والذى عن طريقه يقود خرافه الآن إلى الوطن . لقـد اجتازته من قبلنا مقدمة الصفوف ، ويجتاز غيرهم الآن ظلاله المظلمة ، وسوف نلحق بهم نحن أيضاً عن قريب .

هذه الصورة تعطينا فكرة معزية عن الموت : إنه ليس حالة ، ليس حالة دائمة ، وليس مكاناً نسكنه . بل هو ممر ، انتقال ، وادٍ نجتازه . قد يكون الوادى مظلماً وموحشاً وتكتنفه شرور كثيرة ، لـكننا لا نقيم خيمتنا هناك ، بل نجتازه إلى راحتنا . عند المـوت تغادر الروح الجسد وتخرج منه ، كما يغادر الصانع مصنعه فى المساء ويغلق أبوابه ويذهب إلى بيته تاركاً إياه مهجوراً وهادئاً ، لـكن

صوته يُسمع فى دائرة بيته إذ يُدخل البهجة فى القلوب التى كانت تنتظره والتى لم يكمل فرحها إلا بمجيئه .

فى دمشق حارة ضيقة طويلة مظلمـة تنتهى بسرداب . قامت هناك هذه الحارة أجيالاً طويلة يصعد السائح إليها ويجتازها . لـكنه إذ يعبرها تجـد فناء واسعاً لقصر شرقى تتلألأ فيه الأنوار ويتمتع بنور الشمس البهيج . هذه تمثل موت المؤمن . قيل عن المسيح أنه « بكر من الأموات » (كو١ : ١٨). الموت هو الولادة من سجن وظلمة الأرض إلى نور وحرية الحياة السماوية . هو عمليـة جسدية تؤثر على الجسد ، لـكنها لا تمس مواهب أو صفات النفس . عندما « نتغرب عن الجسد ، نستوطن عند الرب » (٢ كو ٥ : ٨) . إنه ليس بقاء فى حالة لا شعور ، بل هو خروج ، ممر ، اجتياز وادٍ قصير ، شمس مشرقة فى هذا الجانب ، وشمس مشرقة فى الجانب الآخر ، تتوسطهما فترة ظلام لا تدوم إلا لحظة واحدة .

الموت باب للحياة : إن أحباءنا ليسوا أمواتاً ، بل هم الأحياء الذين اجتازوا إلى حضرة الملك عن طريق الموت . وعنـدما نقف بجوار أعزائنا إذ يدعون إلى هذا الخروج الذى يتحدث عنه الرسول

بولس (٢ بط١ : ١٥) نستطيع أن نخاطبهم بكلمات العزاء والرجاء « أخرجى أيتها النفس المسيحية من هذا العالم باسم الله الضابط الكل الذى خلقك ، وباسم يسوع المسيح ابن الله الحى الذى تألم من أجلك ، وباسم الروح القدس الذى انسكب من أجلك » .

ومع ذلك فالوادى مظلم : إن آلام الجسد كثيراً ما تسبب انقباض الروح وتطرح عليها ظلمة قد تُنسب خطأً إلى أسباب روحية . ليس هيناً أن نغادر الأحباء ـ الذين رافقونا طول مرحلة الغربة ـ بدون حزن . وعلاوة على ذلك فهنالك شعور بالدهشة . لأنه بالرغم من أن الآلاف يموتون كل ساعة إلى أن كل شخص يموت وحيداً . كما أن عدونا اللدود ينتهز فرصة ضعف الجسد وقت الموت ويكدس عناصر الخوف والفزع أمام أنظارنا وهى تذبل .

وعلى أى حال فإن الموت ليس أمراً هيناً . قد يقابل الشخص المتهور الموت دون تأثر ، ليس فى موته شدائد ، وشجاعته ثابتة . لكن نظراً لإحساسات الروح الرقيقة فمن المستحيل أن نغادر الشاطىء وندخل البحر فى ظلمة سحب الليل دون الشعور بشىء من الرهبة . وخير تعبير له هو « السير » : « إن سرت فى وادى

ظل الموت » .

والموت فى أسوأ حالاته ليس إلا ظلاً : هو « وادى ظل الموت » . المسيح لقى مادة الموت ونحن لا نلتقى إلا بظله . والوحش قد نُزعت عنه أسنانه وأظافره . إن مسيحنا أباد ذاك الذى له سلطان الموت أى إبليس ، وأعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية (٢ : ١٤ و ١٥) . وهو « أبطل الموت » (٢ تى ١ : ١٠) . ونحن الذين نتبعه نستطيع أن نصرخ « أين شوكتك يا موت » (١ كو ١٥ : ٥٥) . آه ، إن الحية لدغت الراعى الصالح لدغة الموت ، وتركت لدغتها فى الصليب الذى مات عليه . .

إن الظل يماثل جسمه تماماً ، لكنه ليس فى حد ذاته مؤذياً . فظل الكلب لا يمكن أن يعض . وظل الجبار لا يمكن أن يقتل . وظل الموت لا يمكن أن يهلك . يقول النبى أن الموت نقاب يغطى به وجه كل الأمم (إش ٢٥ : ٧) . لكن النقاب لا يؤذى . علاوة على هذا إنك لا تستطيع الحصول على الظل إلا إن كان هنالك نور منير فى الجهة الأخرى . والظل وقتى ، أما النور فأبدى ، لأن « الله

نور وليس فيه ظلمة البتة » (١ يو ١ : ٥) .

لكن هذا التعبير يمكن أن يمثل اختبارات أخرى غير الموت:

إننا كثيراً ما نجتاز أودية مظلمة فى طريقنا إلى بيتنا الأبدى . إن الطريق إلى أورشليم السماوية تكتنفه أودية « البكاء » حيث يكثر البكاء وتتحول الدموع إلى ينبوع (مز ٨٤ : ٦) . إن صاحب الرؤيا ـ فى وصفه لسياحة المسيحى ـ يضع وادى الظل فى منتصف طريقه . وبين البيت الجميل وبين سوق الأباطيل نرى وصف هذا الوادى الذى لا يمكن أن يكون قد كتبه إلا شخص جاز دروبه :

« وإذ أتى الصباح تطلع إلى الوراء ، لا رغبة فى الرجوع بل لكى يرى فى نور النهار مقدار الأخطار التى جازها فى الظلام . فرأى ـ بوضوح اكثر ـ الحفرة على الجانب الواحد والبالوعة على الجانب الآخر . ورأى أيضاً كيف كان الطريق بينهما ضيقاً جداً . ورأى أيضاً الجن والغيلان والتنانين فى الحفرة ، ولكن عن بُعد ، لأنها بعد طلوع النهار لم تعد تقترب . إلا أنها ظهرت له كما هو مكتوب : « يكشف العمائق من الظلام ويخرج ظل الموت إلى النور » (أيوب ١٢ : ٢٢) .

إننا نجتاز أودية ظل كثيرة قبل أن نصل إلى الوادى الأخير :

وعندما نحس بظلمة الظل تضغط على النفس ينبغى أن نفحص أنفسنا لئلا يكون السبب ناشئاً من إهمالنا أو من خطيتنا . إن تبين أن هذا هو السبب فإننا فى اللحظة التى نعترف فيها بتقصيرنا أو بخطيتنا نخرج من الظلمة إلى النور . وإن لم يكن هذا هو السبب ـ على قدر ما تصل إليه معرفتنا ـ فلنتشجع ولنتقدم إلى الأمام . كل خطوة قد رُسمت لنا من قبل ، كما خطاها غيرنا قبلنا . والله يختبرنا ليرى إن كنا نستطيع أن نثق فيه فى الظلام كما فى النور ، وإن كنا نلازمه بنفس الولاء إذ نسير فى الظلام كما كنا نسير معه فى النور .

هنالك قصد صالح فى كل أودية الظل هذه . إنها تمتحن النفس لمعرفة صفاتها . وهى تكتشف مواطن الضعف فينا . وهى تجعلنا نتبع الراعى عن قرب لئلا نضل عنه . وهى تعلمنا أن نعرف قيمة العصا والعكاز اكثر مما كنا نعرف من قبل . فطوبى لمن يؤمنون وإن كانوا لا يرون ، وطوبى لمن يقبلون بالرضا أن يجردوا من كل أفراحهم ومسراتهم وتعزياتهم إن كانت هذه هى إرادة الراعى ، طالما كانوا لا يزالون يستمعون صوته ، وطالما كانوا يدركون أنه قريب .

إصغ إلى تصريح النفس التقية الممتلئة شجاعة ، إذ تفتخر بعدم خوفها : « لا أخاف شراً » . « لا خوف فى المحبة ، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج » (١ يو٤ : ١٨) . لا يستطيع أى شىء آخر أن يفعل ذلك . قد تتكلم ضد الخوف ، وتهزأ به . قد تسعى لتجنبه ، لكن ذلك كله دون جدوى . إن أردت أن تتغلب عليه فيجب أن تطرده بالثقة التى تنشئها المحبة . قد يدخل الرجل بيته متعباً وجائعاً جداً يريد أن يلتهم الطعام التهاماً ، لكنه إذ يدخل ويعلم أن ابنه انتابته حمى مفاجئة ومشرف على الموت فإنه فى لحظة ينسى جوعه ، وفى محبته الملتهبة لابنه وحزنه الشديد ينحنى على جسمه ويسرع ليبرد شفتيه المحمومتين بقطرات من الماء . هكذا تتلاشى العواطف الصغرى فى النفس أمام العواطف الأسمى . وهكذا يحدث أن أكثر الأشخاص جبناً وضعفاً عندما يشعر برفقة الراعى الصالح له يستطيع أن يترنم إذ يعبر الظلام ، وتنتعش روحه ، وتمتلىء قوة وحيوية وشجاعة ، ويتهلل قائلاً « إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً » . « الله لنا ملجأ وقوة . عوناً فى الضيقات وُجد شديداً . لذلك لا نخشى ولو تزحزحت الأرض ولو

انقلبت الجبال فى قلب البحار » (مز ٤٦ : ١ و ٢) .

حسن جداً أن نقول « فى يوم خوفى أنا عليك أتكل » (مز ٥٦ : ٣) ، وأفضل من ذلك أن نقول « هوذا الله خلاصى فأطمئن ولا أرتعب » (إش ١٢ : ٢) .

الحزن والموت يجعلان حضور المسيح يقينياً : هل لاحظت تغيير صيغة الخطاب فى هذه الآية من الغائب إلى المخاطب . إلى الآن كان المرنم يتحدث عن الله بصيغة الغائب ، أما الآن — إذ ينزل فى الظلام — فإنه يزداد اقتراباً من القائد والمرشد الإلهى ، ويتحدث إليه فى همس قائلاً له « لأنك أنت معى » . فى المراعى الخضراء كان يكفى أن يقول عنه « هو » ، أما الآن فالحاجة تدعو إلى زيادة الاقتراب فى الحديث . عندما تسير الأمور معنا سيرها الحسن نكتفى بأن نتحدث عن الرب ، ولكن عندما يكفهر الجو ويظلم نسرع فى الالتجاء إليه مباشرة إن الطفل الذى كان يلهو فى البيت ويلعب تراه يركض مسرعاً إلى حضن أبيه إذا عصفت العواصف وأرعد الرعد . بهذه الكيفية تصبح ساعة الموت ساعة الشركة العميقة مع الله والتمتع بحضرته .

فى بعض الأحيان يكون الظلام كثيفاً جداً بكيفية لا تسمح لنا برؤية المسيح . لكن الإيمان يكون دواماً واثقاً بأنه موجود ، لا بدليل الإحساس أو الشعور بل لأنه قال « لا أهملك ولا أتركك » (يش ١ : ٥) وهو لا يمكن أن ينقض كلامه . هو لم يتركنا وحدنا . هو يتطلع إلينا برقة لا يعتورها الضعف . قد تحجبه الأعماق عن أبصارنا ، لكن لا موت ولا حياة ، ولا علو ولا عمق ، تقدر أن تفصلنا عن محبته لنا الثابتة الأمينة . نعم ، « فإن الجبال تزول والآكام تتزعزع أما إحسانى فلا يزول عنك وعهد سلامى لا يتزعزع قال راحمك الرب » (إش ٥٤ : ١٠) .

« كالظلام هكذا النور » لديك أيها المسيح (مز١٣٩: ١٢) ، يا من دست ظلمة جثسيمانى والجلجثة الكثيفة وحدك . لكنك أنت تعرف الطريق لأنك جزته . إنك قد جزت الوادى وحيداً لكى لا نكون نحن وحيدين . أنت دست المعصرة لكى يستطيع كل واحد من أولادك الضعفاء فى كل الأجيال أن يترنم بهذه الكلمات المعزية : « لا أخاف شراً لأنك أنت معى » .

تعزيات العصا والعكاز

« عصاك وعكازك هما يعزيانني » (مز ٢٣ : ٤)

مهما اختلف وادى ظل الموت فى اختباراتنا الروحية فلا شك فى أن النفس التى تشعر بالوحدة والوحشة أثناء اجتيازه تحس بحاجتها الماسة إلى التعزية . من أول صفحة فى الكتاب المقدس إلى آخر صفحة لا توجد فكرة أكثر تكراراً أو أكثر تعزية من الفكرة التى تحملها هذه الكلمات « عزوا عزوا شعبى يقول إلهكم » (إش ٤٠ : ١) . والواقع أنه يبدو كأن الله الأزلى قد أخذ على عاتقه مهمة تعزية شعبه كما تعزى الأم وحيدها (إش ٦٦ : ١٣) .

كل تعزية حقيقية صادرة من الله بعمل الروح القدس الذى ذكرت تعزياته بصفة خاصة فى (أع ٩ : ٣١) . وعلى كل الذين يريدون أن يختبروا تعزيات الله أن يقرأوا كلمة الله بانتظام « حتى بالصبر والتعزية بما فى الكتب يكون لهم رجاء » (رو ١٥ : ٤) .

فى بعض الأحيان يبدو حقاً أن الله يضعنا فى ظروف ضيقات

خاصة لكى يظهر لنا مصادر تعزياته اللانهائية ، كما نخرج فى ظلمة الليل لكى نرى النجوم .

على أن النقطة الهامة التى تبرزها لنا هذه الكلمات هى أن الله القدير، راعينا الحنون يعزينا بعصاه وعكازه . وكيف يمكن لهاتين الآلتين اللتين يبدو أنهما تشيران بالأحرى إلى التأديب ، كيف يمكنهما أن تجلبا تعزية للمؤمنين المجربين ؟ هذه هى النقطة التى نريد إيضاحها بنعمته ، ونبتهل إلى إله كل تعزية أن يعلن لنا مصادر جديدة للتعزية لكى نستطيع أن نعزى الآخرين بالتعزية التى نتعزى بها نحن من الله .

ما هى عصا الراعى ؟ يقيناً إنها رمز لقوته المدافعة . هى الصولجان الذى يحمله كالملك الراعى الأعلى . هى السلاح الذى يضرب به أعداءنا ، حتى وإن كان ثقيلاً علينا للتأديب . عندما يجتاز الراعى بغنمه أراضٍ صخرية أو أودية ظليلة حيث تكمن الوحوش أو تختبىء اللصوص فى الكهوف المظلمة ، فإنه يحتاج إلى عصا ثقيلة لكى يضرب بها ـ ضربة الموت ـ الأسد أو الدب أو اللصوص الذين يهددون سلامة غنمه . ألا يمثل هذا نعمة المسيح التى

بها يحمينا ؟ فإنه ساهر أبداً ليدفع عنا كل أذى يهددنا ، سواء كان صادراً من رئيس سلطان الهواء ، أو من أعدائنا من البشر الذين طالما أشار إليهم المرنم إذ كانوا أمامه بصفة مستمرة ، وهم أمام كل واحد منا كذلك .

كثيرون ممن يقرأون هذه الكلمات يقضون كل حياتهم تحت ظلال خوف شديد . إنهم يخشون هبوب التجربة التى يشعرون فى أنفسهم أنهم ضعفاء أمامها كأوراق الشجر الذابلة أمام الريح العاصفة . إنهم يخشون أن يصبحوا يوماً ما فريسة الأسد ، أو يقعوا فى يد عدو شديد الشكيمة مثل شاول الملك . ليتهم يعهدون مسئولية حفظ نفوسهم ليد فاديهم الأمين ، واثقين أنه قادر أن يحفظهم فى طريقهم وفى اضطجاعهم « فيسكنون فى البرية مطمئنين وينامون فى الوعور » (حز ٣٤ : ٢٥) . فالراعى يسير أمام الخراف محطماً كل مقاومة بقوة لا تقهر . والله نفسه يسير خلف خرافه يحميهم من كل هجوم من الخلف .

أيتها النفوس الجبانة الخائفة من كل شر روحى وزمنى ، كالأطفال السائرين فى طريق ضيق مظلم خائفين لئلا يلتقوا بعفريت

فى كل منحنى أو بشىء مزعج ، خائفين حتى من صوت النسيم العليل ومن رؤية أى شىء تقع عليه أبصارهم ، ليتكم تدركون بأن الله يعنى بكل من يتكلون عليه . إن الأمر الوحيد المطلوب منكم هو أن تلقوا عليه مسئولية حفظ حياتكم على أساس أنه هو حارسكم الوحيد والمتكفل بكم سواء فى هذه الحياة أو فى الحياة الأخرى . ينبغى أن نتلقى تعزية من عصا الدفاع التى للراعى العظيم ، لأنه مكتوب « خرافى لن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدى » (يو ١٠ : ٢٨) .

وما هو العكاز ؟ حرى بنا أن ندعوه عصا الرعاية الذى للراعى ، وهو عادة منحن فى أحد طرفيه . إنه لا غنى عنه للراعى كالمحراث للحراث . تحته تمر الخراف واحداً فواحداً لإحصائها . وبه يحفظها الراعى من التيه أو يسحبها لإخراجها من الحفر التى قد تسقط فيها . وبه أيضاً يؤدبها عندما لا تطيعه . فى كل من هذه الحقائق تعزية لأبناء الله المجربين .

إننا نُحصى ضمن خراف الله إذ نمر واحداً فواحداً تحت عكاز الراعى . قد تكون أسماؤنا غير معروفة لدى العظماء والعلماء ،

لكنها مكتوبة فى السماء . قد تكون بيوتنا وضيعة وحقيرة بين قصور العظماء ، لكننا لنا فى السموات بيوت أبدية غير مصنوعة بأيد بشرية (٢ كو ٥ : ١) . قد تكون دائرة خدمتنا محدودة ، وقد يكون عملنا لا يزال مبتدئاً بحفر الأساسات ، والشقة واسعة جداً بيننا وبين إكمال البناء ، لكننا فى نظر الله كالكواكب . قد نُحسب فى نظر الناس كالتراب الدقيق فى كفة الميزان ، كفتيلة مدخنة ، أو كقصبة مرضوضة ، لكننا فى نظر أبينا السماوى نُحسب كآلىء ثمينة .

قيلت لمسبيى بابل مرة بضع كلمات تنطبق علينا فى هذه الناحية . فإنهم إذ اجتمعوا ليلاً عند مياه بابل علقوا أعوادهم على الصفصاف ، فجرفتها مياه النهر الجارية من تحتهم ، وبكوا عندما تذكروا أطلال أورشليم المحبوبة . وعندئذ سُمع فى وسطهم صوت النبى يأمرهم بأن يرفعوا إلى العلاء عيونهم وينظروا إلى ملايين النجوم ، ثم ذكرهم الصوت بأن الله بعظمة قدرته هو الذى دعاها كلها بأسماء . وبعد ذلك سُمعت هذه الكلمات : « لماذا تقول يا يعقوب وتتكلم يا إسرائيل قد اختفت طريقى عن الرب وفات حقى إلهى ؟ »

(إش ٤٠ : ٢٦ و ٢٧) . ولا يزال الرب ينطق بكلمات التعزية لكل نفس متعبة تجتاز وادى الحزن المظلم .

إن ملايين نجوم السماء تكوِّن قطيعاً ضخماً . وراعيها هو الله الذى يقودها فى الفضاء ، أو الذى يرقبها كأنها تستريح على المنحدرات السماوية كقطيع من الغنم يستريح على منحدر الجبل فى الليل . وهو يعطى لكل منها إسماً . أليس مفروضاً إذاً أنه يعنى بكل منا عناية لا تقل عن عنايته بها ؟ ألا يدعو كلاً منا باسمه ؟ ألا يحصينا كما يحصى شعور رؤوسنا ؟ فى هذا الصباح بالذات لمسك بعكازه وأحصاك . أنت موضوع عنايته . أيعقل أنه يتركك نهلك أو يعوزك أى شىء من الخير ؟

وبعكاز الراعى يخرجنا أيضاً من ظروف الخطر والنكبات التى نكون قد سقطنا فيها بسبب حماقتنا وخطيتنا . عندما بدأ طرس يغرق أمسكه المخلص ورفعه وساعده لكى يسير على الماء إلى السفينة . لكن هذا مجرد عينة من رعاية الراعى الرقيقة ، لأنه كثيراً ما أحزنته خطايانا ، وليس ذلك فقط بل كثيراً ما طوحت بنا فى

ظروف الشقاء والضيق التى تهدد بهلاكنا .

فى مثل هذه الأوقات هو لا يغفل خاصته . وبالرغم من أنه يبدو أننا قد خسرنا كل حق فى رعايته فإن « الله لنا ملجأ وقوة . عوناً فى الضيقات وُجد شديداً » (مز ٤٦ : ١) . هو لا يسمح لنا بأن نحصد ما زرعنا ، ويحوِّل عنا كل قصاص أخطائنا وسوء أفعالنا . هو يسعى وراءنا فى البرية ، ولا يهدأ حتى يكشف الحفرة التى سقطنا فيها ، ولا يتركها حتى يخرجنا منها ، ويضعنا على منكبيه إن عجزنا عن المسير ، ويعيدنا ، ويفرح لأننا قد أصبحنا آمنين . « هكذا قال السيد الرب هأنذا أسأل عن غنمى وأفتقدها . كما يفتقد الراعى قطيعه يوم يكون فى وسط غنمه المشتتة هكذا أفتقد غنمى وأخلصها من جميع الأماكن التى تشتتت إليها فى يوم الغيم والضباب » (حز ٣٤ : ١١ و ١٢) . آه ، يا لطول أناة المسيح الذى لا يسمح بأن تبتلعنا الأحزان والقصاصات التى نكون قد استحقيناها ، بل يمد عكازه لينتشلنا من الموت .

وبالعكاز أيضاً يؤدب الراعى خرافه . فى بداية الأمر يبدو أن

التأديب يتنافى مع التعزية . فالتأديب عمليـة غير سارة . وضربة العكاز أليمـة . ومع ذلك فإننا نجد تعزية عنـدما نذكر أن الله لا شك يعنى بنا وإلا فلا داعى لكى يصرف الوقت يفكر فى تأديبنا . من ذا الذى يتعب لكى يأخذ لعجلة المصنع قطعة حجر غشيمة دون أن يصقلها ؟ . فالحجر المصقول ، والمـاس المصقول بعناية ودقة ، والمعدن الذى دخل النـار وهُذِّب أسابيع بل شهوراً ، هذه كلها تصبح لها قيمة عظيمة حينئذ . وأى بستانى ينفق وقتاً ومجهوداً فى شجرة لا تعطى ثمراً بعد تجارب متكررة ؟. إن الغصن الذى يحمل عناقيد عنب كثيرة هو الذى ينال عناية فائقة من الكرام « الذى يحبه الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله . إن كنتم تحتملون التأديب يعاملكم الله كالبنين » (عب ١٢ : ٦ و٧) . فاقبل إذاً أيها المؤمن كل ضربة من عكاز الراعى . وفى كل ضربة تعزَّ بهذا الفكر : « لابد أن راعىَّ يحبنى جداً وإلا فلم يكن هنالك مبرر ليعاملنى هكذا » ، وبعد ذلك حوِّل القلب إليه فى رغبة ملحة بأن تتعلم الدرس الذى يريد أن يعلمك إياه ، وبأن لا تفقد شيئاً من البركات التى يقصدها لك .

هكذا إننا سائرون ببطء فى الوادى متعلمين دروساً كثيرة

من التعزية التى نخبئها فى قـلوبنا . فلنقبل الآلام بالرضا بسبب البركات الغزيرة التى تحملها . كل جرح فينا ينتج لؤلؤة ، كما هو الحال فى محارات اللآلىء . وهنالك أيضاً حقيقة أخرى هى أن اختباراتنا تجعلنا رقيقى الإحساس نحو سقطات وأحزان الآخرين ، وتمكننا من أن نشترك فى تهايل الرسول الذى قال : « مبارك الله أبو ربنا يسـوع المسيح أبو الرأفة وإله كل تعزية ، الذى يعزينا فى كل ضيقتنا حتى نستطيع أن نعزى الذين هم فى كل ضيقة بالتعزية التى نتعزى نحن بها من الله . لأنه كما تكثر آلام المسيح فينا كذلك بالمسيح تكثر تعزيتنا أيضاً » (٢ كو ١ : ٣ ـ ٥) .

الفصل الثامن

الوليمة

« ترتب قدامى مائدة تجاه مضايقى » (مز ٢٣ : ٥)

فى بداية الأمر قد يبدو أنه من العسير أن نتتبع تسلسل أفكار المرنم إذ يتحول من حظائر الراعى إلى الوليمة . ومع ذلك فإنه مطالب الحياة الروحية تسمو جداً فوق كل التشبيهات الأرضية ، ولهذا فإنها تتطلب استخدام أكثر من تشبيه واحد أو استعارة واحدة ، فالواحد يدعم ما ينقص فى الآخر ، وبهذا تكمل الفكرة الحقيقية التى تمثل علاقتنا بالله .

طبيعى أنه مما يعيننا جداً أن يفكر الإنسان فى نفسه كخروف ، ويفكر فى المسيح كراعى . لكن لا يمكن أن تكون هنالك شركة بين الحيوانات العجمى وبين حارسها الساهر . إن الولد الصغير ـ مهما كان صغير السن ـ الذى يلازم راعى الغنم ، له شركة مع أبيه أقوى من الحيوانات العجمى التى يرعاها .

لهذا فإن المرنم يبدو أن يقول : « أنا أفضل من خراف

الرب ، أنا ضيف الرب » . إن الجلوس مع أى إنسان على مائدته دليل على الألفة الشديدة ، لا سيما فى الشرق . ليس ذلك لإشباع الجوع بل لإظهار المحبة الشديدة والولاء والإخلاص . لهذا فإنه مما زاد حزن المرنم أن آكل خبزه هو الذى رفع عليه عقبه (مز ٤١ : ٩) . كذلك لم يكن ممكناً للرب أن يعطى دليلاً على محبته لتابعه الخائن أقوى من أن يغمس لقمة ويعطيها إليه . إذاً فإنه يقدّم أمامنا هنا موضوع للتأملات العميقة إذ نشبه الحياة بالجلوس على مائدة وليمة الله لنأكل ما أعده لنا .

إننا نجلس على مائدة عناية الله اليومية : إن لأبينا السماوى أسرة كبيرة ، وهو مثقل بالاهتمام بكل المسكونة . كل الأشياء تعتمد على قدرته . لا يطير سرافيم واحد فى الهواء دون أن يستمد قوة طاعته من ربه . لا تطير ذرة واحدة فى أشعة الشمس مضيئة فى النور الجميل دون أن تعتمد على نور وحياة شمس البرّ الذى تغطى الملائكة وجوهها قدامه .

ووسط كل العناصر الطبيعية التى يعنى بها بصفة مستمرة لا شك فى أنه يبذل عناية أوفر لسد أعواز أولئك الذين يدعونه

حقاً « أبانا » . إننا ضيوفه ، كلا بل أفضل من ذلك ، إننا أبناؤه . كل مخازن الإمدادات الإلهية معدة لسدّ أعوازنا ، ولا يمكن أن يسمح بأن يرى أنه يعوزنا أى شىء . قد يسمح بعض الأحيان بأن يجعلنا ننتظر حتى تدق الساعة . وكما أنه لن يأتى قبل الأوان بدقيقة واحدة فإنه لن يأتى بعده بدقيقة واحدة . إنه يسخّر أرملة لتعولنا بكوار الدقيق الذى لن ينفذ مهما أُخذ منه . إنه يمطر خبزاً من السماء فيأكل الإنسان طعام الملائكة . إنه يبارك فى الخمس خبزات التى يحملها الولد الصغير فى جرابه فتكفى لإشباع الألوف .

فى مساء يوم أحد لم تستطع إحدى المؤمنات أن تحضر الكنيسة كعادتها وذلك بسبب مرضها . فسلمت للراعى عشرة قروش لتقديمها إلى أرملة فقيرة يعرفها وتعرفها هى أيضاً . فتصادف أن لقيها تمشى ببطء فى طريقها إلى الكنيسة ، وللحال قدم إليها العشرة قروش . فأجابته الأرملة فى الحال : « لم أكن أظن أن الله يرسلها إلىّ بهذه السرعة » . وبعد أن سألها الراعى علم منها أنها وضعت آخر ما عندها فى صندوق العطاء وصلّت إلى الله بإيمان

طالبة منه أن يوفر لها طعامها فى الوجبة التالية . لقد كانت هذه الأرملة فى صلة وثيقة دائمة مع الله ، وتعلمت أن خلاصه يصل فى الوقت المعين تماماً ، وعندما تشرق شمس الصباح ، صباح الحاجة الشديدة ، والساعة التى فيها ينتهى الكبرياء والاعتماد على الذات ، عندما يكون القلب عامراً بالإيمان والرجاء ، متطلعاً إلى الخلاص الذى لا يمكن أن يتأخر .

أنا لا أنسى قط قصة رجل متقدم فى السن وُجد جالساً على أحد مقاعد كنيسة « يورك » قبيل غلق الكنيسة ليلاً ، وتبين أنه كان يجلس هناك منتظراً منذ الصباح الباكر . كان قد جاء إلى المدينة للبحث عن ابنته . وإذ لم يجدها رأى نفسه بدون رفيق وبدون طعام ، وكان جيبه خاوياً . لم يدر إلى أين يذهب ، فذهب إلى الكنيسة وانتظر بها طول النهار ، لأنه — على حد تعبيره — آمن بأن أليق مكان يجد فيه مائدة أبيه هو بيت أبيه . ولست فى حاجة لأبين بأنه قد وجد كل حاجته .

يتوهم بعض أولاد الله أنهم لا يمتازون فى شىء عن أهل العالم . وحسب إيمانهم يكون لهم . إن لم ندرب الإيمان ونطالب

بإمدادات الله فهل نعجب إن كنا لا نحصل عليها ؟ أما إن كنا نتمسك بمواعيده التي تلزمه بسد أعواز بنيه ، حتى وإن احتاجت الأشبال وجاعت ، فإننا نجد بأن الله يقدم إلينا كل ما نحتاجه ، وأنه لا يسقط حرف واحد من كل مواعيده (مز ٣٤ : ١٠) . عندما يذكر البعض حالات معينة رأوا فيها أولاد افتقروا جداً فمن الحكمة توجيه السؤال عما إذا كانت لهم شركة قوية مع الله وإيمان به ، وعما إذا كانوا قد طالبوه بإتمام مواعيده التي تنطبق على حالتهم . إن أقل ما يقال هو أنه لا يليق أبداً بأولاد الله أن يقلقوا من جهة طعامهم اليومي إن كانوا يستخدمون كل الطرق المشروعة للحصول عليه كباقي البشر . ألا نلمس نغمة التوبيخ فيما قاله الرب « فإن هذه كلها تطلبها الأمم » ؟ وهل يمكن أن نجد تأكيداً أشد من كلماته « لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها » .

ماذا تقول إذا دخل ابنك الصغير مكان حفظ الطعام واللحوم في البيت قبل ذهابه إلى المدرسة ، وشغل نفسه في فحص محتوياته ليتأكد من أن به طعاماً كافياً للوجبة التالية وقت الغذاء ؟ ألا يستحق بذلك سخطك عليه ؟ ألا تقول له : إذهب إلى مدرستك

واتركني أُدبِّر حاجياتك ؟ ألا توبخه بسبب عدم ثقته فيك ؟ آه ، ليتنا نتعلم دروساً من أطفالنا ، ونؤمن بأن الحياة إقامة واحدة طويلة في أحد منازل بيت أبينا ، وأنه لن يأتي اليوم الذي فيه تكون المائدة خالية وخاوية ، ولن يأتي اليوم الذي فيه يعوزنا شيء . قد يسمح لك بأن تجوع لأن هنالك بعض الشياطين التي لا تخرج إلا بالصلاة والصوم . ولكن ملاكه سوف يأتي ـ إن عاجلاً أو آجلاً ـ ويلمسك قائلاً : « قم وكل » ، وعلى رمال الصحراء تجد وليمة أعدتها أيدي الملائكة ، حتى وإن كانت مجرد كوز ماء عند رأسك وكعكة رضف (١ مل ١٩ : ٥ و ٦) .

والله أيضاً يرتب مائدة الانتعاش الروحي : هل ننسى تلك الحادثة ـ التي حدثت في أحد أيام الأربعين التي كان يظهر فيها السيد لتلاميذه بعد القيامة ـ التي وجد فيها التلاميذ وليمة بسطها سيدهم الحنون على شاطىء البحيرة بعد أن تعبوا ليلة طويلة ولم يمسكوا فيها سمكاً ؟ فإنهم حالما وطئت أقدامهم الشاطىء رأوا ناراً ، وفوقها سمك ، وخبزاً . أليس هذا رمزاً لعناية الرب الدائمة بأولاده ؟ إذ يضنينا التعب ، وتخور عزائمنا بسبب المجهود المضني

عديم الثمر ، فإننا كثيراً ما نخرج إلى الشاطىء الذى وطئته قدما السيد المبارك . ولن نقترب منه دون أن نجد أنه قد أعد لنا مقدماً كل أعوازنا الروحية وأن «جسده مأكل حق ودمه مشرب حق».

قال الرسول بولس فى رسالته لأهل كورنثوس أنه بما أن المسيح فصحنا قد ذُبح لأجلنا فيجب أن نقتدى ببنى إسرائيل الذين إذ أغلقوا الأبواب ، ومنطقوا ذواتهم ، وانتعلوا أحذيتهم ، ووقفوا حول المائدة ليأكلوا خروف الفصح الذى كان دمه على عتبة الباب فى الخارج يشير إلى خلاصهم . « لأن فصحنا أيضاً المسيح قد ذُبح لأجلنا . إذاً لنعيِّد » (١كو ٥ : ٧ و ٨) . إن حياة الكنيسة ـ بين مجىء المسيح الأول ومجيئه الثانى ـ ترمز إليها وليمة الفصح فى تلك الليلة الخالدة . بفرح فى أفواهنا وانتصار فى قلوبنا نقف حول مائدة الرب حيث جسده المقدّس ودمه الكريم لإنعاش كل النفوس الأمينة ، مرهفين السمع لنسمع أول هتاف ينبىء بأن وقت الخروج والحرية قد جاء . إن المسيحيين اليوم لا يبالون كثيراً بضرورة التناول من مائدة الرب لتغذية حياتهم الروحية . هنالك خدمات كثيرة تؤدى ، وحضور مؤتمرات كثيرة ، وقراءة كتب روحية ، لكن هنالك فقر شديد فى

التأمل فى شخص الرب يسوع المسيح وفى كلامه وعمله .

ليت كل من يقرأ هذه الكلمات يقف برهة ، ويسأل نفسه عما إذا كان يعرف شيئاً عن حياة التأمل الداخلية التى تزداد نمواً من إمعان الفكر فى الرب .

منذ بضعة أيام وجدت توبيخاً لنفسى من عادة القديس « فرنسيس سال » الذى قيل عنه : « كانت النقطة الأولى فى قاعدة حياته أن يستيقظ مبكراً ، الأمر الذى حرص عليه بأمانة إلى آخر أيام حياته ، وكثيراً ما كان يوصى غيره به . كان هو أول من يقف على قدميه فى قصره ويبدأ صلواته وتأملاته بين الساعة الرابعة والساعة الخامسة صباحاً ، ولا يقضى فى ذلك أقل من ساعة . كان يفعل ذلك ومذكراته فى يده ، لكى يتذكّر البركات السابقة ، وبهذا كان يزداد غيرة وحماسة فى الصلاة . كذلك كانت لا تمر ساعة فى حياته المزدحمة بالمشاغل دون إنتعاش روحه بالاتصال بالله » .

وعلاوة على هذه العادة اليومية كان يخصّص أسبوعاً أو اثنين كل سنة لكى يتأمل تأملات أعمق فى أسرار الفداء

العظيمة . وهاك ما قاله : « ينبغى على المرء ـ بالتأمل المستديم فى أسرار التجسد والفداء العظيمة ـ أن يغمر نفسه أكثر وأكثر فى محبة الله التى هى أعظم بركاته . إننى سأزداد انشغالاً بحب ربى ، بالتأمل فى حياته الإلهية على الأرض ، فى آلامه وفى أمجاده . ليت حياتى « تستتر مع المسيح فى الله » (كو ٣ : ٣) .

ونستطيع أيضاً تطبيق هذه الكلمات على مائدة العشاء الربانى : هذه المائدة قد أعدها الله ، وهى لا تحفظ لنا فقط ذكرى تلك الليلة التى فيها أُسلم الرب ، بل هى أيضاً ترفع أفكارنا مثبتة إياها فيه حيث هو جالس الآن . عندما نتناول جسد الرب ودمه يتحقق القلب النقى إنه بالإيمان قد تقبل بركات جزيلة وتعزية ليست بقليلة . لنذكر فى تلك اللحظة الرهيبة ـ قطرات الدم التى تصببّت من جبين المخلص ، والصليب والآلام وموته المحيى ودفنه . وكما نشترك فى آلامه فإننا نشترك أيضاً فى مجد قيامته .

إننا نجد بركة عظيمة عندما نتناول جسد الرب ودمه كل أسبوع ، إن أمكن ، لكى نتعلم بوضوح أن نرفع كل الحياة إلى مستوى مائدة الرب ، فنذكرها كلما جلسنا إلى مائدة الطعام فى كل

وجبة ، ونستخدم كل عناصر الطبيعة كوسائط للشركة المقدسة معه . وكيف نستطيع تقديم الشكر اللائق لله لأنه أعد أمامنا مائدة بهذا المعنى أيضاً .

وهنالك تعزية كبرى فى هاتين الكلمتين « ترتب قدامى » إذ يبدو أنهما تشيران إلى عناية الله التى ترتب حاجياتنا من قبل . إنه لا يسمح بأن تذهلنا المفاجآت . لا يسمح لأبنائه بأن يطلبوا شيئاً لم يرَ هو مقدماً حاجتهم إليه . وكما أنه سبق فأعدَّ لنا أعمالاً صالحة لكى نسلك فيها (أف ٢ : ١٠) ، كذلك هو سبق أيضاً فأعد الطعام الذى به يتغذى خدامه . إن كل طريق حياتنا معلّم بشواهد أقامها المسيح ـ الذى سبقنا فى هذا الطريق ـ ووضع تحتها الغذاء الذى نحتاجه . « لأنك تتقدمه ببركات خير » (مز ٢١ : ٣) . بُسطت المائدة قبل أن يحضر الجائع . لقد تفجرت العين قبل أن تأتى هاجر هى وابنها يكاد يقتلها العطش . وملاك جند الرب لم يحتل فقط مملكة العدو بل أعد أيضاً قمح الأرض . والله يحصن قلاعه قبل أن يحاصرها العدو . « ترتب قدامى مائدة » .

ويا لها من عبارة رائعة تلك التى تُختم بها الآية «تجاه مضايقى».

ويقيناً أننا نفهم منها أن كل من حولنا قد يقفون أمامنا لمضايقتنا، يأخذون على عاتقهم أن يوقعوا بنا الأذى، وأن يقطعوا عنا كل إمداداتنا، وأن يهلكونا جوعاً. تطلع إلى هذه الوجوه التى تناصبنا العداء، تتطلع إلينا بنظرات قاسية تحاول أن تفترسنا، لكنهم لا يستطيعون أن يقطعوا عنا تلك الإمدادات التى تأتينا من فوق ساعة فساعة. لا يستطيعون أن يمنعوا الملائكة الذين يبسطون أمامنا مائدة ويكدسون فوقها الطعام، ثم يَصفّون أنفسهم لكى يكوّنوا دائرة داخلية للدفاع. قد يصر الأعداء على أسنانهم بسبب غيظهم لأن هجومهم قد فشل، لكن عندما يختار الله أن يغذى نفساً فإنها لا بد أن تتغذى ولو هجمت عليها قوات الجحيم. فى مرات كثيرة كان داود يأكل طعامه فى هدوء وطمأنينة بينما كانت جماعة أعدائه المرافقة لشاول تتسلل إلى الأودية بحثاً عن الكهوف لتجده. وكما كان الحال مع داود لا يزال هذا هو اختبار جميع أولاد الله منذ ذلك الحين.

نعم أيها المؤمن، إن الله يدعوك إلى أن تأكل من الوليمة

«كلوا أيها الأصحاب. إشربوا» (نش ٥ : ١). إن الملك قد أدخلك إلى بيت وليمته، وعَلَمَه فوقك محبة. سوف نأكل من المن المخفى، ونشرب من الينبوع الذى يتفجر فى المدينة المحاصرة الذى يمكّنها من أن تتحدى أعداءها المحيطين بها. وليس الوقت بعيداً حينما نجلس من المسيح فى ملكوته. وكما أكل إخوة يوسف - الذين أتوا منهكى القوى من سفر بعيد - مع أخيهم الذى سبق أن ألقوه فى البئر، هكذا سوف نجلس نحن أيضاً على المائدة المهيأة لعشاء عرس الخروف، ويتمنطق المسيح ويخرج لخدمتنا، وسوف تمحو ولائم الأبدية الغنية ذكريات أحزان وآلام هذه الحياة.

الفصل التاسع

مسحت بالدهن رأسى

(مز ٢٣ : ٥)

هذه الاستعارة مستقاة من عادة الشرق فى ولائمه ، فإن ترحيب صاحب البيت بضيوفه يعبر عنه بالأدهان النفيسة التى يدهنهم بها لدى دخولهم بيته . إن كان الترحيب بهم ضعيفاً ـ كما حدث إذ دخل المسيح بيت سمعان ـ أُهملت هذه العادة ، ولوحظ الإهمال فى الحال ، وربما أُشير إليه كما أشار إليه السيد قائلاً « بزيت لم تدهن رأسى » (لو ٧ : ٤٦) .

إن المحبة والتوقير والترحيب لا يمكن إظهارها بأرق من كثرة ثمن المواد التى يتركب منها الزيت لـيُسكب على رأس الضيف العزيز والمرّ والعود والقرفة تعطر الثياب وتبقى رائحتها أياماً كثيرة ، مذكرة بالساعات الجميلة التى صُرفت مع الأحباء . أما الطيب الكثير الثمن الذى سكبته مريم على رأس الرب فقد بقيت رائحته العطرية طوال الساعات المضنية التالية وظلت

تذكّره بمحبة مريم الخالصة .

يبدو أن هذه الأدهان المنعشة للجسم المضنى كانت تُحفظ فى وعاء من المرمر ليسهل كسره ، وبهذا تنسكب محتوياته بغزارة . إن المحبة تستخف بكل تضحية . عندما يُمنح الغفران الوفير الذى يبعث المحبة الوفيرة ، ويشعر الخطاة بأنهم قد أصبحوا مقبولين أمام الله ، فإنهم فى اللحظة الأولى لا يحسبونها تضحية كبرى ، للتعبير عن عواطفهم وفرحهم ، أن يسكبوا محتويات هذه الأوانى النفيسة ، ويذرفوا الدموع ، ويطبعوا القبلات ، ويتصرفوا التصرفات التى تنم عن تفكير رقيق (لو ٧ : ٣٧) .

عندما يقول المرنم أن الله نفسه يدهن رأسه بالدهن ألا يريدنا أن نفهم بأن الحياة وليمة نكون نحن فيها ضيوف ، والله هو صاحب البيت ؟ ثم ألا يقصد أيضاً أن يعلمنا بأن الله يرحب بنا فى محبة وإخلاص ؟ ليس هو بخيلاً أو مقتراً ، لكنه يسعده أن يرانا سعداء ، ويسعده أن يسعدنا . هو يمنحنا الكماليات كما يمنحنا الضروريات ، ويبذل الجهد ـ بثمنٍ غالٍ ـ لكى يبين لنا أنه يُسر بأن يقبلنا ويرينا نعمة فى المحبوب .

هنالك براهين كثيرة عن هذه النعمة الرقيقة التى أنعم بها على البشرية بوجه عام. هنالك أشعة من النور فى حياة معظم البشر ـ فى محبة الأصدقاء المخلصين، أو فى توافق المحبين ـ تنمّ عن ترحيب الله بنا. إن أغلب البشر إذ يدخلون عتبة الحياة يجدون مثيلاً لهذا الدهن الشرقى، دهن الترحيب بالضيف، الذى يُسكب عليه لدى دخوله غرفة الوليمة. كل شخص ينال الترحيب من غير المنظورين إذ يخطو على عتبة الحياة الروحية.

ولقد رتب الرب المبارك بأن تتوافق طبيعتنا مع العالم الذى نعيش فيه، حتى إنه يوجد فى قلب كل منا سرور عظيم بالحياة وفرح طبيعى وفير جداً، إلا حيث أفسد الإنسان بخطيته قصد خالقه. « ما أكرم رحمتك يا الله، فبنو البشر فى ظل جناحيك يحتمون. يروون من دسم بيتك. ومن نهر نعمتك تسقيهم » (مز ٣٦ : ٧ و ٨). « وخمر تفرح قلب الإنسان لإلماع وجهه أكثر من الزيت وخبز يسند قلب الإنسان » (مز ١٠٤ : ١٥) « ومن السمك بقدر ما شاءوا ».

ومع أن هذا يصدق على البشر بصفة عامة إلا أن هنالك مسحة

خاصة لا يمكن أن يشتركوا فيها. فى سفر الخروج (٣٠ : ٢٣ ـ ٢٥) نرى وصفاً لدهن خاص هو « دهن مقدس للمسحة » كان يستعمل لمسح خيمة الاجتماع والتابوت والأوانى المقدسة، وأيضاً لتكريس هرون وبنيه والكهنة. لكن كان هناك شرطان يجب إتمامهما بصدده. الأول هو أنه يجب عدم تقليده، والثانى أنه يجب أن لا يُسكب « على جسد إنسان ». وكل من هذين الاحتياطين خليق بتأملنا. فعدم تقليده « لا تصنعوا مثله » يعلمنا أن الدهن الذى يصنعه الله ليس له مثيل فى حياة البشر. وعندما نزداد تعمقاً فى فحص الكتاب المقدس نجد أن الزيت فيه يرمز إلى الروح القدس. وهنالك فقرات كثيرة فى الكتاب المقدس تعطينا كل الحق فى تطبيق هذا التفسير على كلمة المرنم التى تهلل بها قائلاً « مسحت بالدهن رأسى ». آه، ليتنا ندرك دوماً أن مضيفنا العزيز الذى نجلس على مائدته منشغل بصفة مستمرة فى مسحنا بزيت الروح القدس.

ولعل ربنا يسوع المسيح قد ردد هذه الكلمات لكن بمعنى أعمق. « وأما عن الابن فيقول أحببت البر وأبغضت الإثم من

أجل ذلك مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج أكثر من شركائك» (عب ١ : ٨ و ٩) . والرسول بطرس أكّد - وهو فى بيت كرنيليوس - أن الآب مسح الابن مسحة كهذه : « يسوع الذى من الناصرة مسحه الله بالروح القدس والقوة » (أع ١٠ : ٣٨) . وهذا يتفق مع صوت الكنيسة المضطهدة الظافرة عندما تقف حول « فتاك القدوس يسوع الذى مسحته » (أع ٤ : ٢٧) . نعم ، والآب لم يعط الروح بكيل بل بغزارة غير محدودة ، والسموات انفتحت - كما لسرت الأوانى المرمرية فيما بعد - ونزل الروح القدس (لو ٣ : ٢٢) .

لم يكن هنالك قط وقت لم يكن الرب يسوع المسيح فيه ممتلئاً بالروح القدس . « روح الرب علىّ لأنه مسحنى » (لو ٤ : ١٨ ، إش ٦١ : ١) . « أنا بروح الله أخرج شياطين » (مت ١٢ : ٢٨) .

لقد مُسح الرب كاهن . كان كل كاهن يُمسح بالمسحة المقدسة (خر ٢٩ : ٢١) . ومع أن كاهننا الأعظم لم يكن على طقس هرون فقد مُسح أيضاً ، وهكذا استقر عليه الروح القدس « مثل الدهن الطيب على الرأس النازل على اللحية لحية هرون ، النازل إلى

طرف ثيابه » (مز ١٣٣ : ٢) . إننا لسنا إلا مثل طرف ثيابه قرب قدميه حيث تلمع الرمانات وسط الجلاجل الذهبية (خر ٢٨ : ٣٣) . ومع ذلك ألا يليق بأن نتوقع بأن نقبل هذه المسحة المقدسة كطرف ثيابه .

مُسح الرب كملك . إن كلمة « مسيا » معناها ممسوح . « وجدنا مسيا الذى تفسيره المسيح » (يو ١ : ٤١) . وفى المزمور الخالد ، مزمور المسيا ، الذى فيه يعلن القدير - وسط ثورة أعدائه - أنه قد أقام ابنه ليكون ملك البشر الحقيقى ، قيل بصراحة ووضوح « أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدسى » (مز ٢ : ٦) . ألا تذكرنا هذه الكلمات الرائعة بمنظر جليل عندما كان أدونيا وشركاؤه فى المؤامرة يفرحون ويغتبطون عند حجر الزاحفة الذى بجانب عين روجل وإذا برسول بلهث ويفاجئهم بهذه الأنباء : « سيدنا الملك داود قد ملّك سليمان ، ومسحه صادوق الكاهن وناثان النبى ملكاً فى جيحون وصعدوا من هناك فرحين حتى اضطربت القرية » (١ مل ١ : ٤٣ - ٤٥) . « هللويا فإنه قد ملك الرب الإله القادر على كل شىء » (رؤ ١٩ : ٦) . إن إله

المحبة هو الذى مُسح ملـكاً . ومع أننا لا نرى كل شىء قد أُخضع له إلا أنها سوف تخضع له ، وسوف يعلن العالم ولاءه التام له .

ونحن أيضاً قد مُسحنا كملوك وكهنة . سبق أن رأينا بأن الدم والدهن كانا يستعملان للتكريس . ولهذا فإذ اشترانا وغسلنا بدمه فقد مسحنا لنكون ملوكاً وكهنة لله أبيه (رؤ ١ : ٦) بتجديد الروح القدس « الذى سكبه بغنى علينا »(تى ٣ : ٦) .

أيها القارىء العزيز ، هل اختبرت هذا أم إنك تشكو بمرارة لأنه يعوزك هذا الاختبار ؟ آه ، إن إلهنا لا يعرف التمييز أو المحاباة . هذه المسحة هى لك فى فكر الله وقصده . وعليك أن تطلبها وتجعلها حقيقية فى حياتك ، لكى تختبر كلمات الرسول : « ولكن الذى يثبتنا معكم فى المسيح وقد مسحنا هو الله الذى ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح فى قلوبنا »(٢ كو١:٢١و٢٢) .

فعلينا أن لا نحاول قط إتمام الخدمة ـ ككهنة ـ بتقديم ذبيحة التسبيح أو الصلاة دون أن نطلب وننال مسحة جديدة . ولنثق بأنه من المستحيل أن نتمم أية خدمة ـ كملوك ـ بالتملك على

طبيعتنا الداخلية أو الجلوس ، فى عظمة ملكية ، مع المسيح على عرشه ، إلا إن كنا شاعرين دواماً بمسحة الروح القدس .

وإنه لامتياز لنا أن نُمسح بزيت طرى (مز ٩٢ : ١٠) . كان هذا هو ما تأكد منه ذلك لرجل الذى شهد له الله بأنه وجده حسب قلبه . ليس هنالك شىء تافه أو مبتذل فى مخازن الله ليس مطلوباً منا أن نعيش على فاكهة مجففة لأن الشتاء جرد الأشجار من فاكهتها ومن أوراقها . والقوة والأفراح التى تمتعنا بها فى أيام غابرة لا تصبح موضوعاً للندم والتأسف الآن بسبب ضياعها ، لأن مضيفنا الكريم قادر ويريد أن يعطينا كل يوم من أيام حياتنا المتتابعة بقدر ما أعطى فى الأيام الماضية وأكثر . لا تتحسر على النعمة التى أفلتت كأنها لن تعود . هنالك مخازن لا تنضب من الدهن الذهبى فى زيتونة الله تغذى أنابيب الإيمان الذهبية ، وهذه تغذى سُرُج الحياة المقدسة ، وبهذا لن تنطفىء فى الليل الطويل ، بل تزداد ضياء (زك ٤ : ١٢) . طالب كل صباح بأن تُمسح من جديد ، بدهن جديد .

هذه المسحة تبهج قلوبنا . فالدهن هو « دهن الابتهاج »

(مز ٤٥ : ٧) . « ما أجوده وما أجمله . الحنطة تنمى الفتيان والمسطار العذارى » (زك ٩ : ١٧) . « وخمر تفرح قلب الإنسان لإلماع وجهه أكثر من الزيت » (مز ١٠٤ : ١٥) . « ليكن (أشير) مقبولاً من إخوته ، ويغمس فى الزيت رجله » (تث ٣٣ . ٢٤) . إن حاجة العالم هى للوجوه اللامعة ، الابتسامة المبتهجة ، كلمات الرجاء التى تبهج الفعلة طول الليل ، الأقدام التى تقفز فرحاً . إذا كان المرء يفقد هذه فإنه يفقد ختم البنوية الذى يثبت صحتها أمام كل الناس . أما إذا حصلنا عليها ـ وهذا أمر أكيد عندما نُمسح كل يوم بالروح القدس ـ رأى أحباؤنا فى تصرفاتنا وفى منظرنا ما يلفت أنظارهم دون أن يستطيعوا تقليده أو فهمه ، وسألونا أن نفسر لهم سر الفرح الذى لا يقدر العالم أن يمسّه ، لأن ينابيعه مخبأة فى أرض لا تعرف صقيع الشتاء .

وهذه المسحة تعلمنا ما يعجز عنه أى معلم بشرى . كتب الرسول يوحنا إلى أبنائه الأحداث يقول : « لا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شىء » (١ يو ٢ : ٢٧) . إن التبرم والملل والجزع كثيراً ما رافقت

تحصيل العلم الأرضى على أيدى المعلمين البشريين ، وكثيراً ما ينقصنا أحب الأشياء التى نريد أن نتعلمها . لكن لا يوجد شىء مثل هذا مع إلهنا . فكل أولاده يدركون أنه عندما يعلمهم يعظم سلامهم . لا يستطيع أحد أن يعلّم مثله . وعندما يتعهد بتعليم النفس فإنه لا يمكن أن يحذف فقرة واحدة من كل العلوم السماوية اللازمة .

أما تأثير هذه المسحة فهو ثابت . « المسحة التى أخذتموها منه ثابتة فيكم » (١ يو ٢ : ٢٧) . الطعام الذى أكلناه يثبت فينا ، وعندما لا نحس بوجوده فإنه يكون قائماً بعمله على أكمل وجه لبناء مادة كياننا . عندما ننال بركة روحية عظيمة فإنها لا تزول ، بل تثبت . فى وسط ضغط الظروف اليومية والعمل والمشاغل الكثيرة ، عندما يبدو أن العقل منشغل جداً بالعمل الضرورى بحيث لا يكون لديه وقت فراغ لزيادة التسامى ، يكون الروح القدس متابعاً عمله المبارك لإنماء النعمة والقوة فى الداخل . وبتعبير آخر ، إننا ننال بركات مسحة الروح القدس بعد وقت قبولها بوقت طويل ، فالرائحة العطرية تستمر لاصقة

بملابسنا ، والبشاشة تستمر على وجوهنا .

فعلينا أن لا نرتضى بأقل من النعمة المباركة التى لا يعبر عنها التى تدعى «مسحة » . نحن لا نستطيع أن نحللها أو نفهم لماذا تنتج هذا التأثير الذى يعجز عن إتمامه العلم أو الفصاحة . لكننا نتبينها عندما تكون موجودة ، ونفتقدها عندما تزول . عندما تكون موجودة فإن القلب يتقبل أقل كلمة كرسالة من الله . وبدونها تصبح أفصح وأبلغ العظات بلا جدوى .

يا رب إفعل ما شئت ، لكن فقط امنحنا هذه المسحة ، مسحة الروح القدس . « مسحت بالدهن رأسى » . « يا سيد ، ليس رجلىَّ فقط بل أيضاً يدىَّ ورأسى » (يو ١٣ : ٩) .

الفصل العاشر

الكأس الفائضة

« كأسى ريا » (مز ٢٣ : ٥)

قد تأتى لحظات مبهجة مفرحة لأشد القلوب حزناً وكآبة . فى نهاية مجهود طويل مضن ، عندما يكون المرء مرتمياً على رمال الصحراء كإيليا ، يطرح النوم تعويذته على الجسم المنهك القوى ، وتبسط الملائكة وليمة منعشة ، وتستيقظ النفس باللمسة السماوية ، بقوى جديدة للقيام بمهام جديدة .

لا نستطيع دواماً أن نحدد الوقت الذى فيه تأتى مثل هذه الاختبارات . لكن هذا هو كل ما نعرفه : إن نشاط الحركة يزداد ، والرجاء فى القلب يزداد ، والشفاه تترنم ، وكل الكيان يبتهج ، كما تفعل الطبيعة فى بعض أيام الربيع الجميلة . « عندما رد الرب سبينا امتلأت أفواهنا ضحكاً وألسنتنا ترنماً . حينئذ نقول بين الأمم أن الرب قد عظَّم العمل معنا وصرنا فرحين » (مز ١٢٦ : ١ - ٣) .

فى ساعات كهذه تبدو الحياة أمامنا كأنها كأس مزجتها يد

يد الرب المُحِبّة ، تفيض منها رحمته وإحسانه . وبدموع تجاهد مع الابتسامة محاولة التغلب عليها ، كما يجاهد المطر مع أشعة الشمس ، نرفع الكأس الممتلئة إلى شفاهنا ونصرخ قائلين « كأسى ريا » .

إننا لنجد اختباراً مماثلاً فى مزمور آخر يمس أعمق الينابيع كما يمس أسمى الاختبارات البشرية . إنه يبدأ بحديث أسيف عن التعب ، عن « حبال الموت وشدائد الهاوية » (مز ١١٦) ، وبتهم طائشة عن حقيقة كل البشر . ويخبرنا كيف أن المرنم فى شدته دعا باسم الرب . وكيف صنع له الرب خلاصاً عجيباً . وبعد أن يتأمل فى نصيبه ، يبدو له كأنه كأس ممتلئة خلاصاً ، وممتلئة إنقاذاً كافياً سريعاً رقيقاً صنعه له القدير (ع ١٢ ، ١٣) .

ليس لنا الآن أن نقول شيئاً عن المادة التى صُنعت منها كؤوس الحياة . قد تكون من ذهب ، أو فضة ، أو صفيح ، أو مرمر ، أو زجاج . هنالك تنوع غير محدود فى المواد التى صُنعت منها حياتنا . ولنتأمل فقط فى محتوياتها التى لا يختلف طعمها سواء أكانت فى أوانٍ فخارية أو أوانٍ ذهبية . إن الاختلافات الكبيرة فى حياة البشر تقوم فى محتوياتها لا فى مظاهرها الخارجية . فلا

تنظر إذاً بتبرم إلى خارج كأسك وصحفتك ، بل انظر بشكر إلى محتوياتهما التى قد تكون أكثر حلاوة لمذاقك ـ ولو كانت فى كأس عادية ـ من محتويات حياة الآخرين الذين تحسدهم وأنت لا تدرى كيف أن محتوياتها مرة المذاق .

خليق بنا أن نذكر بأن كأس البركة التى نشرب منها كانت سابقاً ممتلئة لعنة مرة . نقرأ فى الكتاب المقدس عن « كأس الترنح » أو كأس الارتعاش (إش ٥١ : ٢٢) ، وكأس غضب الله . وإذ نقرأ الكلمات ندرك أن حياتنا كان ممكناً أن تمتلىء بالارتعاش والارتعاب وتمتلىء بالغضب ، كأجر لأفعالنا . وليس معنى هذا أن الله محب للانتقام ، أو أنه يُسرّ بموت الخاطىء ، بل إن طبيعته المقدسة لا يمكن إلا أن تشتعل غضباً كلما رأى الشر والنجاسة . لو تُركنا لنشرب نتائج خطيئتنا المرة لكان ذلك كما فعل موسى إذ سحق العجل الذهبى وذرى الرماد على الماء وأعطى الشعب ليشربوا . وإذ ما وُجِّه السؤال كيف إننا أُعفينا من اختبار مُرّ كهذا ، تلقينا الإجابة فى كلمات ذاك الذى يدافع عن قضية شعبه : « هأنذا قد أخذت من يدك كأس الترنح ثقل كأس

غضبى . لا تعودين تشربينها فى ما بعد » (إش ٥١ : ٢٢) . وعندما أخذها من أيدينا سكب محتوياتها فى الكأس الممزوجة له ، وأعادها إلينا فارغة حتى من الثمالة ، بل ممتلئة من خمر محبته ، بينما شرب هو نصيبنا من الغضب والويل .

أذكر كلماته فى جثسيمانى حينما أنهى جهاده فى الصلاة ، وكان الجنود على وشك أن يقيدوه ، واستل بطرس سيفه بتهور « فقال يسوع لبطرس إجعل سيفك فى الغمد . الكأس التى أعطانى الآب ألا أشربها ؟ ! » (يو ١٨ : ١١) .

تأمل فى محتويات كأس المسيح : العار والبصق ، الآلام والشدائد ، التعذيب الجسدى ، وفوق الكل مرارة خطايانا التى التقى تحملها ، إثم لعنتنا التى قبلها طوعاً ، قصاص خطيتنا التى حُسبت عليه . وبتعبير آخر يمكننا القول : أن كل البشرية وقفت فى صف طويل ، وفى يد كل واحد كأس مرة ، وإذ مرَّ المسيح عليهم أخذ من يد كل واحد كأسه وسكب محتوياتها فى الكأس الكبيرة التى كان يحملها ، وهكذا نراه على الصليب قد « ذاق الموت لأجل كل واحد » (عب ٢ : ٩) . وهكذا تفعم حياتنا

بالخلاص لأن حياته أُفعمت بالآلام ، وأصبحت كأسنا كأس الفرح لأن كأسه كانت كأس الحزن ، وكأسنا كأس البركة لأن كأسه امتزجت باللعنة التى تحملها نيابة عنا .

آه ، ليتنا فى لحظات مسراتنا نقتدى بالقديسين فى السماء الذين فى وسط أبهج مسراتهم يقرنون دواماً سعادتهم بموت المسيح . لا تنس قط الثمن الذى أُشتريت به أبهج لحظات حياتك .

ولنعدد بعض محتويات كأس حياتنا :

(١) الصحة الجيدة هى من أهمها . قد يكون المرء حاصلاً على كل ما يؤدى إلى السعادة البشرية ، ولكن إن كانت هذه مقترنة بآلام المرض المستديم فأية سعادة له ؟ إن أيامنا الحزينة تعزى فى كثير من الحالات إلى اعتلال الصحة ، وأيامنا البهجة تكون بصفة عامة مقترنة بالصحة القوية . إذاً فإن بدت كأسك حلوة المذاق كانت الصحة السليمة عنصراً أساسياً فى محتوياتها ، ولو أننا لا نقدِّر قيمة الصحة إلا وقت اعتلالها . ولقد صدق من قال « الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى » .

(٢) الصداقات البشرية والمحبة البشرية . إذا انعدمت صارت

أسعد سعادة برية قاحلة ، وأصبحت حتى الشوارع الذهبية كالشوك تُدمى الأقدام . أما إذا توفرت أسعدت أفقر فقير ، وصارت حتى الأرض الممتلئة أعشاباً جنة فى السماء .

(٣) وسائل الراحة فى الحياة العائلية . ولا داعى للتحدث عن الضروريات . إن الكثيرين منا يتمتعون بالكماليات : الوسائد الناعمة ، الأبسطة الفاخرة ، الأثاثات النفيسة والكثيرة ، والطعام الفاخر ، والملابس الغالية ، والخدم الذين يوفرون علينا الكثير من تعب الأعمال اليدوية . يدرب الرواقى نفسه للاستغناء عن الكثير من هذه ، وقد يحاول اقناعنا بأن الحياة بدونها أسهل مما هى مع توفرها . ومع ذلك فما لا شك فيه أن الكثير من رفاهيتنا يتوقف على توفر هذه الملذات التى أصبحت مألوفة لنا بطول الاستعمال .

(٤) الثقافة العقلية . كل منا يستطيع أن يسحب من بئر الماضى كنوزاً من علوم العالم الماضى والعالم الحاضر . وكل منا يستطيع أن يستمتع بأفكار الشعراء والفلاسفة الذين أغنوا المسكونة بعلومهم . وكل منا يستطيع أن يفحص الطبيعة ليغترف الكثير من عجائبها وجمالها .

(٥) ومن وقت لآخر تُسكب فى كأس الحياة حلاوة ممتازة :

إنقاذ خاص ، تدخل العناية الإلهية بكيفية لم تكن متوقعة ، بركة غير عادية لا نستحقها . ويكون الأمر واضحاً بأن هذه لم تُرسل لغاية أخرى سوى إشباع رغبة الله فى العطاء . إن كل قلم بشرى ليعجز عن وصف كل ما يسكبه الله فى كأس حياتنا ، فالكثير من محتوياتها لا يمكن تعليله ، والكثير لا يمكن إدراكه ، والكثير لا يمكن إحصاؤه . وفضلاً عن هذا فإن كؤوس الحياة لا يمكن أن تُملأ بنسبة واحدة . فإن أبانا يفحص مادة تكويننا ويجعل استعداده فى العطاء مطابقاً لاحتياجنا . وطالما كان هنالك تنوع لا نهائى فى مادة تكويننا فإن هنالك تنوعاً لا نهائياً فى الجرعات التى يضعها أمامنا على المائدة التى يبسطها لنا .

على أنه مهما كانت البركات التى فى كأسنا فمن المؤكد أنها تفيض.

إن العجل الذى يقدمه عجل مسمن دائماً ، والثوب الذى يقدمه أفخر ثوب . والفرح لا يُنطق به . والسلام يفوق كل عقل . والنعمة فائضة وغنية حتى إن من يقبلها يشعر بأن له كل ا كتفاء فى كل شىء ويزداد فى كل عمل صالح . وعطايا الله لا تعرف الشح أو التقتير أو البخل . وهو لا يزن هباته كما يزن الصيدلى عقاقيره بالدرهم والجرام ، ويسكبها نقطة نقطة . إن طرق الله تتميز دواماً

بالوفرة والسخاء ، كالطبيعة الغنية بجمالها وحياتها ، حتى أن كل نقطة فى المحيط ، وكل سنتيمتر مربع فى الغابة ، وكل ذرة فى المادة تحمل العجائب وتتحدى علوم العلماء . فخليق بكل منا أن يصرخ مع الرسول : « استوفيت كل شىء واستفضلت » (فى ٤ : ١٨).

على شاطىء إحدى البحيرات العذبة فى أمريكا تقطن أسرة متواضعة فى كوخ متواضع. وعندما يقضى الولد الصغير كل الصباح فى اللعب يدخل الكوخ متعباً وعطشاناً ويسأل أمه أن تسقيه . فتأخذ الأم كأساً وتنزل إلى البحيرة وتملأها إلى حافتها وتسقى ابنها حتى يرتوى . هذه هى الطريقة التى يعاملنا بها الله . إنه يعطى الجميع بسخاء ولا يعيِّر . فيه كل كفايتنا وأزيد من الكفاية . هو يعطينا أكثر مما نحتاجه لأنفسنا . فلنحرص على أن نمسك بكؤوسنا بحكمة بحيث لا يضيع ما يفيض منها بل يُسكب فى كؤوس الآخرين الذين لا يمتلكون بقدر ما نمتلك نحن . آه ، ليت طرقنا تكون مثل طرق الله التى عندما تقطر دسماً فإنها تقطر على المراعى الناشفة فى البرية حتى تتمنطق الآكام بالبهجة ، وأخيراً تكتظ بالغنم ، وتهتف بالفرح وتغنى « آثارك تقطر دسماً . تقطر مراعى البرية وتتمنطق الآكام بالبهجة . اكتست المروج

غناماً . والأودية تتعطف بُراً . تهتف أيضاً وتغنى » (مز٦٥: ١١، ١٢).

لكن الكأس يشير بصفة خاصة إلى البركات الروحية . كان هذا هو اختبار الكثيرين من أبرز القديسين . قال أحدهم « رد يدك يا رب . كفى . إن عبدك آنية خزفية لا تستطيع أن تسع أكثر من هذا » . وقال آخر إنه إذ كان وحيداً فى إحدى رحلاته بدأت أفكاره تسمو أكثر وأكثر حتى صارت فيضاناً مكتسحاً . هكذا كانت وجهة نظره فى تفكيره ، وهكذا كان تذوقه لأفراح السماء ، وهكذا كان تأكده من تلذذه بها ، حتى إنه أصبح لا يبالى بالنظر إلى هذا العالم ولا يهتم به . وبعد عدة سنوات دعا ذلك اليوم أحد أيام السماء ، وأعترف بأنه بذلك ازداد فهماً لحياة السماء أكثر مما فهمه بالكتب التى قرأها أو العظات التى سمعها .

يقيناً أن الرب يسوع المسيح قصد لنا أن يكون اختبارنا لمثل هذه الأفراح أكثر استدامة . إنه لم يأت لكى يمنحنا حياة فقط بل لكى تكون لنا الحياة الأفضل . لقد كلمنا بكلامه الخالد لكى يكمل فرحنا . هو يريد أن تتلذذ بالدسم أنفسنا وأن نشبع رضى ونمتلىء بركة من الرب (تث ٣٣ : ٢٣) .

إن مثله الأعلى لنا يمكن تشبيهه بأحواض صخرية حفرها

سقوط المياه المتوالى ، تحف بها أرض خضراء فى غاية الروعة والجمال والخصب ، يصب فيها النهر مياهه الغزيرة التى يستقيها من ينابيع مستديمة ، وإذ تفيض منها المياه بصفة دائمة فإنها تجرى فى مجرى مستديم يملأ بدوره بركة صغيرة أو يزيد خصوبة الأرض المحيطة به . فعلينا أن نحتزن ما حصلنا عليه . بل لنسمح بسرور لكأسنا بأن يفيض . لنتجنب بُخل البخيل الذى لا يريد أن يعطى لأنه يخشى أن لا يأخذ . لنعط بروح الكرم والسخاء من ثروتنا ، لأننا نعلم أنها لا تنفذ إذ أنها آتية من يد أبينا . إن أحد قوانين ملكوته هو إننا نأخذ منه بنسبة ما نعطى .

كلمة أخيرة : إحرص على أن تأخذ كأس الخلاص . ليس هنالك احتقار للمعطى أشد من تجاهل عطاياه . ومع ذلك فما أكثر الكؤوس التى يضعها أمامنا الله لكننا نرفض أن نذوقها . يبدو أن البعض يظنون بأن الله لا يريد لهم السعادة الكاملة ، وأنهم إن شربوا كأس الفرح فإنما ذلك خلسة أو مع كلمة اعتذار . والبعض يشربون نصفها ، أن إن شربوها كلها وضعوا فيها بعض المرارة من صنع أيديهم لئلا تكون الجرعة حلوة المذاق أكثر من اللازم . إننا كثيراً ما ننسى بأن الله أعطانا كل شىء بغنى للتمتع

وعندما نكون واثقين من أنه قد أعطانا أى شىء فيجب أن لا نحجم عن أخذ الكأس من يده . فى بعض الأحيان لا نملك شيئاً لأننا لا نستطيع أن نبصر أو لأننا نتباطأ فى أخذ الكؤوس التى يعدها لنا الله .

وعندما نشرب لنحرص بأن ندعو باسم الرب . كأس الخلاص أتناول وباسم الرب أدعو » (مز ١١٦ : ١٣) . عندما نفعل هذا نجد أن الدواء المر الذى يخيفنا قد تحول فجأة إلى أكسير الحياة . هنالك رواية قديمة عن كأس قديمة ممتلئة سماً وُضعت بخبث فى يد الملك . وإذ رشم عليها علامة الصليب ودعا باسم الرب تحطمت عند قدميه . إذاً فادع باسم الرب فى كل ظرف . إدعه فوق الكؤوس التى تغريك قبل أن ترفعها إلى شفتيك ، سواء كانت هذه الكؤوس هى صداقات ، أو خططاً ، أو أى نوع من أنواع الأعمال العالمية . هذا الاسم إما أن يكشف الأفعى الكامنة فى قلب الكأس ، أو يحول الأشياء العادية إلى أشياء مقدسة ، ويجعل الكأس العادية كأساً مقدسة كالتى نستخدمها عندما نشرب دم الرب .

الفصل الحادى عشر

الحرس السماوى

« إنما خير ورحمة يتبعانني كل أيام حياتي » (مز ٢٣ : ٦)

« كل أيام حياتى » . هذه تشمل كل الأيام . أيام الربيع : عندما يكون كل العالم مليئاً بالحياة الجديدة البهيجة . بهجة فى الحقل ، أغنيات فى الجو ، تفتح الزهور فى البستان . أيام الصيف : عندما تكون السنة قد وصلت إلى قمتها المجيدة ، ونورها الذهبى ، ولياليها المنعشة . أيام الخريف : عندما تمتلىء الحقول بحزم القمح ، وينشغل العمال فى جمع الكروم والفواكه المتنوعة . أيام الشتاء : عندما تتساقط أوراق الشجر ، ويكفهر الجو ، وتتساقط الأمطار ، ويتكاثف الظلام ، وتصبح الأرض الزراعية كأنها برية قاحلة .

فى بعض الأحيان نقف على حافة جبل تطل على هاوية عميقة يكتنفها ضباب كثيف فنبدأ بأن نتساءل عما تكنه هذه الهوة ، ويقودنا هذا إلى التساؤل عما تكنه لنا الأيام . هل ستكون الأيام ذهبية تشرق عليها أشعة شمس السماء بلونها الذهبى ؟ هل سيكون

لونها أحمر لأنها سوف تلطخ بدم الآلام والتضحيات ؟ أم سيكون لونها قاتماً بسبب ما يكتنفها من ظلمة الأحزان ؟ هل ستكون أيام ولادات ، أم أيام وفيات ، أم أيام زيجات ، أم ذكريات أحباء أعزاء انتقلوا ؟ هل ستكون أيام أصوام ، أم أيام ولائم ، أم أيام ذكريات قديسين ؟ هى ساعات قصيرة معدودة — ساعات اليوم الواحد — كوميض نور الفنار الذى يُرى فى البحر . ومع ذلك كم من السرّاء والضرّاء يحمل .

على أنه لن يجىء يوم واحد فى كل مستقبل حياتنا دون أن يرافقنا الملاكان الحارسان ، الحرس السماوى ، المرسلان من الله ، وهما الخير والرحمة ، اللذان أمرهما الله بمرافقة المؤمن كل أيام غربته على الأرض .

عندما يتملك الخور على المسافر بسبب البرد ، أو يبغته ظلام الضباب الكثيف فيعجز عن رؤية الطريق ، ومن ثم ينطرح على العشب يكاد يقتله التعب واليأس ، فأية تعزية لا نهائية تملأ قلبه إذ يرى راعياً بجواره ، أو يتبين اثنين من الخدم جاءا من بيته البعيد مرسلين للبحث عن ذلك الضال وإعادته إلى بيته الدافىء

الأمين . بهذه الكيفية يرى المؤمن — فى ساعات التعب والوحشة — ملاكى الله هذين : الخير والرحمة .

لم نَرَ قط ملاكين كالذين جاءا إلى سدوم ، ولا حتى تمثالى ملاكين كالذين كانا يظللان تابوت العهد فى خيمة الاجتماع . لكننا نستطيع أن نتخيّل وجهيهما الطاهرين ، وهيئتهما الأثيرية ، وطرقهما الرقيقة . على أننا نرى هنا ما هو أفضل من معونة الملائكة ، إننا نرى صفتين من صفات الله : خيره ورحمته ، أى شخصه فى أرق كل اعلاناته عن محبته وشفقته نحو البشر .

خير ورحمة ليس خيراً فقط ، فإننا خطاة ونحتاج إلى الغفران . وليس رحمة فقط ، فإننا نحتاج إلى أشياء كثيرة غير الغفران . لكن الإثنين مرتبطين معاً . خير لسد كل حاجة ، ورحمة لغفران كل خطية . خير للامداد، رحمة للغفران . وطالما ربط داود الإثنين معاً ، فنراه مثلاً يقول « الرب صالح (خيّر) . إلى الأبد رحمته » (مز ١٠٠ : ٥) .

وماذا نقول عن هاتين الصفتين المباركتين ؟

« خير » مكتنز فى مخازن فسيحة جداً فى طبيعة الله ، معدّ

للفقير . هو طعام للجائع ، مسكن للبار ، إكليل السنة ، شمس الحياة « ذوقوا وانظروا ما أطيب (ما أكثر خير) الرب » (مز ٣٤ : ٨) . « ما أجوده (أخيره) وما أجمله » (زك ٩ : ١٧) .

« رحمة » : هى إبنة الله ، هى مسرته « فإنه يسرّ بالرأفة (بالرحمة) » (مى ٧:١٨) . وهى ثروته ، فإنه « غنى فى الرحمة » (أف ٢:٤) . وهى عرشه « وأنا أتكلم معك من على الغطاء (كرسى الرحمة) » (خر ٢٥ ٢٢) . من ذا الذى يستطيع إحصاء الأشعة المنبعثة من هذه اللؤلؤة . إنها رقيقة ، أكيدة ، أبدية . يقيناً أنه يليق بالرب أن يقول « أن أباكم رحيم» (لو ٦ : ٣٦) .

وهذان «يتبعاننا» . فى الشرق يسير الراعى دواماً فى المقدمة . وراعينا الصالح لن يخرجنا إلى أى عمل أو إلى أية موقعة حربية دون أن يتقدم أمامنا . لكن ملائكته التى تحرس قطيعه تكون فى المؤخرة . إن لنا حراس مؤخرة للدفاع عن كل هجوم يشنه علينا عدونا الخائن . إن لنا معيّنين يرفعاننا من حجر إلى حجر فى أهرام الحياة ، يحفظاننا من السقوط ، يهمسان فى آذاننا بكلمات

التعزية ، ويضمان أذرعتهما القوية تحت أذرعتنا فى ظروف الشدة وعند التعثر .

هل تحمل هذه الكلمة « يتبعان » هذا المعنى أننا عندما نبتعد عن الله فإنه يرسل خيره ورحمته وراءنا ليدعواننا للرجوع إليه ؟ لعلها تحمله . إن ترك إبن عاق أمه الأرملة ليسافر بحراً فإنها لن تنساه ، بل إن صلواتها ودموعها وتفكير محبتها تتبعه . ولكى تعيده إليها وإلى الله فإنها ترسل إليه أرقّ حنين قلبها المحطم . وهذا ما يفعله الله مع خاصته . قد يبتعدون عنه ، أما هو فيتبعهم . يجعل الخير والرحمة يتبعانهم . قد يبدو فى بعض الأحيان أن ضيقاً يتبعهم فوق ضيق ، وضربة فوق ضربة . لكن هذا ليس حقاً . إن حقيقة الأمور ليست دواماً كظاهرها . فهذه الضيقات والضربات ليست إلا المظاهر التى يختفى وراءها الخير والرحمة ، هى ثوبها الخارجى الذى يحمى الثياب الصوفية الرقيقة المعدّة للابن الضال المهلهل الثياب ، الذى يكاد يموت جوعاً ، لتدفئة رأسه المتعبة وجسمه المنهك القوى . إن الله لن يقسى قلبه ، ولن يتخلى عن أمانته ، ولن يترك خلقة يديه « لأن إلى الأبد رحمته » (مز ١٠٦ : ١) .

إن ذهبت هنا أو هنالك وجدت نفسك فى أذرع خير الله ورحمته اللذين يتبعانك بصفة مستمرة . قد لا تدرك بأنهما قريبان منك ، قد تشعر بأنك وحيد حزين ، كئيب . قد يكون اليوم أسوأ أيام حياتك ، فالجو مكفهر ، مقبض للنفس ، لا شعاعة فيه للأمل والرجاء والعزاء ، تحيط بك عوامل الخوف والفزع . لكن ملائكة الله يرون أنه بالقرب منك ـ ولو كان محتجباً عن عينيك بسبب ضعف إيمانك ـ يقف خير الله غير المحدود المشبع بالمحبة ، ورحمته الرقيقة التى لا تسقط أبداً . إنهما سوف يبسطان أمامك فى البرية مائدة كما فعلا لإيليا ، أو يضيئان لك فى العاصفة ، ويقفان بجوارك ، ويأمرانك قائلين « لا تخف » كما فعلا مع بولس .

إذا طما الموج الرفيع ... وهاجت المياه
نعلم أنك السميع ... وصاحب النجاه
تهدأ بأمرك الرياح ... طوعاً لما تريد
فننظر البحر استراح ... من كده الشديد
ما دمتَ تحفظ الحياه ... لا نرهب الهلاك
فى الضيق أو حين النجاه ... نكون فى حماك

وطالما كان هنالك رجاء كهذا فلا يوجد أقل مبرر للشك . يقول المرنم « إنما خير ورحمة يتبعانني» . ولماذا هذا اليقين ؟ لأن الله هو الله ، لا يتغير ، أزلى أبدى ، لا يمكن أن يسحب ما أعطاه مرة. « إن كنا غير أمناء فهو يبقى أميناً ، لن يقدر أن ينكر نفسه » (٢ تى ٢:١٣) . « لأن هبات الله ودعوته هى بلا ندامة » (رو ١١:٢٩) . ومانح كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هو أيضاً أبو الأنوار الذى ليس عنده تغيير ولا ظل دوران (يع ١:١٧). وإذا ما ابتدأ بأن يتبعنا بالخير والرحمة ، فإننا قد نبتعد عن طرقه ، ونتغافل محبته ، ونقاوم روحه القدوس ، ونتجاهل وجود رسوليه (الخير والرحمة) ، ونأمرهما بالابتعاد عنا . ومع ذلك فإنهما لا يتزحزحان . قد يتبعاننا عن بُعد لكنهما سوف يستمران فى الاتباع ، ولا يهدأ لهما بال حتى يعيداننا إلى الله .

« يقيناً » : لأن الله كان أميناً أبداً فى الماضى . « يقيناً » : لأنه لا يليق به أن يبدأ ولا يكمل . « يقيناً » : لأنه ألزم نفسه بمواعيد عظمى وثمينة . « يقيناً » : لأن شهادة جميع قديسيه بلا استثناء تؤكد أنه لا يهملنا ولا يتركنا . « يقيناً » : لأنه إن كان

قد حصر كل محبته فينا منذ الأزل فلا يمكن أن ينساها الآن . إذاً فيقيناً إنه لن يأتى يوم فى غربتنا على الأرض دون أن يكون الله بجانبنا بالخير والرحمة .

« إنما خير ورحمة »، أى خير ورحمة فقط . وهكذا ورد فى (مز ٧٣ : ١) « إنما صالح الله ... لأنقياء القلب » . إن كل أعمال الله معنا هى خير ورحمة فقط ، ولا تقل عن الخير والرحمة .

أيتها القلوب الخائفة الخائرة ، التى تخشين سلوك الطريق المظلم وحيدة ، تشجعى ، منطقى ذاتك بشجاعة جديدة ، إرفعى الأيدى المسترخية وشددى الركب المخلعة . إن الله يعرف عدد الأيام الباقية من الحياة ، يعرف مطالبها ، وتجاربها وأحزانها . وهو قد تعهد بأن يعطى القوة على قدر حاجة اليوم « كأيامك راحتك » أو « قوتك » حسب هامش الكتاب المقدس (تث ٣٣ : ٢٥) ، وبأنه لن يأتى يوم لا يباركه بخيره ورحمته ، وبأنه هو نفسه سيكون معنا كل الأيام وإلى انقضاء الدهر .

الفصل الثانى عشر

« بيت الرب إلى مدى الأيام »

(مز ٢٣ : ٦)

إن مرور السنين يوقظ فى قلوبنا الرغبة فى البقاء والخلود . فإن طبيعتنا تتوق لا إلى ما هو وقتى بل إلى ما هو أبدى . وكما أننا نرى أوراق الأشجار تكتسحها رياح الخريف أو تغطى ممرات الغابات التى نجتازها فى أيام الشتاء القصيرة ، وكما أن التغييرات فى عالم الطبيعة تلزمنا بأن نتذكر التغييرات الأعظم التى تنقلنا بصفة مستمرة من عالم أيامنا الماضية إلى عالم غريب لم يُكتشف بعد كالعالم الجديد الذى أبحر إليه كولومبوس — هكذا تقوم فى داخلنا رغبة ملحّة إلى وطن لا يغزوه الموت ، وإلى صداقات لا يوهنها الزمن ، وإلى أكاليل من زهور لا تذبل ، وإلى حالة من الوجود غير قابلة لأى تغيير .

هذا الدوام أو الخلود الذى ننتظره قد تشير إليه الكلمات التى يختم بها المرنم الراعى مزموره « إلى مدى الأيام » ، وهى

كلمات بسيطة لكنها مليئة بالمعانى . إن المزمور ملىء بالتغيير كالحياة نفسها . فكل جملة تقدم صورة مستقلة لمنظر جديد فى غربتنا على الأرض . لكن النهر المضطرب ، الذى تكسر على أحجار كثيرة ، وتعرج فى منحنيات كثيرة مثيرة ، يظهر الآن بأنه قد انسكب فى عمق المحيط العظيم : فى الأبدية التى تنقل إلينا موسيقى أمواجها — إذ تتكسر على شواطىء الزمن — نفس النغمة : « إلى مدى الأيام » ، أو « إلى الأبد » .

لا شك فى أن التغييرات فى حياتنا الفانية لازمة كلها لتعدنا للحالة التى ليس فيها تغيير . إن الزمن هو التمهيد اللازم للأبدية . والأرض هى بيت التدريب للحياة الحقيقية التى تنتظرنا عندما نتعلم الدرس لأخير ، وعندما يدق جرس المدرسة . لكن ذلك كله يكمل صفاتنا ويصقلها لتبدو فى مظهرها الأخير متناسقة جميلة ، وكل ذلك سوف يُنسى كحلم الليل عندما ندخل الأبدية التى هى دائمة ، بمعنى إنها لا تأخذ منا شيئاً من ممتلكاتنا الحقيقية إلا لتكمله ، أو بنفس الكيفية التى بها تؤخذ البذور لاستنبات أنواع أرقى .

على أن هنالك ما هو أسمى من فكرة الدوام أو البقاء أو

الخلود ، هو أن السماء بيت ، أو سكن ، أو وطن . هى « بيت الرب » . وهذا أقرب تعبير فى العهد القديم لكلمات الرب يسوع ، « فى بيت أبى منازل كثيرة » .

« بيت » : يا لها من كلمة رائعة . إن البيت يجذب الضال أو التائه من أقصى الأرض . إنه يبعث الصبر والاحتمال فى الفلاح والجندى والمكتشف . إنه يذيب قلب المجرم القاسى بذكرياته الجميلة . إنه يسيل من عينىّ رجل العالم بحراً من الدموع . إن المرأة الفقيرة تستهين بكل تعب لكى تجعل بيتها نظيفاً .

مهما قلت أن البيت متواضع هزيل
فلن يوجد له على الأرض مثيل

إن ذاك الذى لم يكن يمتلك من حطام الأرض بيتاً يسند فيه رأسه يريد أن يكون لكل منا بيته الذى يقدسه .

وما الذى يجعلنا نحب بيوتنا ونقدسها ؟ ليس موقع البيت ، ولا فخامة بنائه ، ولا بساتينه الغناء ، ولا الأثاث الفاخر ... ليست هذه هى التى تخلق البيت . إن توفرت هذه دون وجود الأحباء فيه أصبح لا يُطاق البقاء فيه . يقوم البيت فى الأب

والأم والأخوة والأخوات والزوجة والأبناء .

والآن لنحوّل تفكيرنا إلى السماء التى لا نعرف عنها إلا القليل نسبياً ، ونعرف أن راعينا الصالح قد صعد إليها . ثم انظر إلى نور يعكسه عليها تشبيهها ببيت كما يصفها المرنم هنا . يقيناً إنها بيت من حيث حياتها الاجتماعية السعيدة . ستتوفر لنا الحرية فى حضرة الله كما تتوفر للأبناء الحرية فى حضرة الوالد والوالدة اللذين يحبانهم محبة رقيقة . سوف يعرف كل منا الآخر ، ويتحدث كل واحد مع الآخر بحرية ، كما كنا نفعل هنا على الأرض .

تأمل فى الأسرة الكبيرة المكونة من كل الأتقياء فى كل الأجيال ، من الطفل الرضيع إلى الشيخ المتقدم فى السن . وعندئذ تكوّن فكرة ضئيلة عما ستكون عليه حالة ذلك البيت عندما يصل إليه آخر إبن وسط تهليل الملائكة وتسبيحهم ، وتجتمع كل أسرة السماء والأرض فى بيت الآب إلى الأبد . إنهم لن يغادروه أبداً . ولن يخرجوا منه قط . ولن تبطل أفراحهم .

قد يقرأ هذه الكلمات بعض أشخاص فى كل أطراف العالم ممن يعيشون فى وحدة ووحشة ويتملك على نفوسهم — أحياناً —

حنين العودة إلى البيت والوطن :

أحن اشتياقاً لذاك الوطن لأنظر ربى يسوع المجيد
وأبقى هنالك طول الزمن وأرفع صوتى بأعلى النشيد

آه ، ليتنا نعود ونصير أطفالاً من جديد ، لكى نجد من يعنى بنا وبراحتنا ويدبر أعوازنا بدلاً من أن ندبر لأنفسنا ولغيرنا . قد يكون هذا هو شعور البعض وحنينهم . ومع هذا الحنين قد تسيل الدموع بسبب ارتحال بعض الأحباء حديثاً .

تعال ، إن هذه الأفكار لن تجدينا شيئاً ، ولن تؤهلنا لإدراك حقيقة الحياة . بل بالحرى إنها تفت فى عضدنا . فعلينا أن لا نعيرها أقل اهتمام . إن كنا قد فقدنا فردوس الزمن الغابر ، ووقف ملاك شاهراً سيفه لكى يمنعنا من دخوله مرة أخرى ، فهنالك فردوس آخر ، هنالك فردوس أفضل أمامنا ، يقف على أبوابه ملائكة يشيرون إلينا للدخول ، هو فردوس بيت أبينا . يجب أن لا نفكر فى طردنا من الفردوس ، بل فى عودتنا إليه . كان البحارة فى القديم ـ إذا ما أبحرت السفينة ـ يشرئبون نحب الأصدقاء الذين تركوهم خلفهم إلى أن يصلوا إلى حدود الميناء التى

تركوها ، وحالما يغادرون الحدود يبدأون بأن يشربوا نخب الأصدقاء الذين ينتظرونهم أمامهم . فلنركز تفكيرنا فى الأصدقاء الذين ينتظروننا أمامنا .

طوبى لمن يحنّون لذلك البيت ، لأنهم سيصلون إليه . والمرنم يتكلم فى هذه الكلمات بلهجة الواثق المتأكد. إنه لا يشك فى أنه سيسكن هناك . صحيح إنه كان خروفاً ضالاً ، وحياته لم تكن بلا خطية ، وميله لم يكن للسلام والعطف والرقة ـ التى تؤهل الرجل الوديع لسكن السماء ـ بقدر ما كان للحرب والدماء . فكيف يمكنه أن يذهب إلى هناك ؟ وما الذى جعله متيقناً من الذهاب إلى هناك ؟ لا شك فى أنه شعر بأن الراعى الصالح لا يمكن أن يكون هناك بينما يكون الخروف الضال فى الخارج يصرخ ويبكى . « حيث اكون أنا تكونون أنتم أيضاً » (يو ١٤ : ٣) . لكن لنا وعد آخر اكثر تأكيداً يليق بنا أن نلتفت إليه مغتبطين « كما إلى سراج منير فى موضع مظلم» (٢ بط ١ : ١٩) .

لأننا قد وثقنا فى المسيح وصرنا واحداً معه ، لأننا قد قبلنا فى قلوبنا بذرة الحياة الأبدية التى تحمل معها السماء مصغّرة ، لأننا

قد حصلنا فعلاً على عربون ميراثنا فى محضر الروح القدس وبشهادته ، لأن وعد الله وقسمه يؤكدان لنا بركاتنا الأبدية ، وهذان يجعلان الفشل مستحيلاً - من أجل كل هذه الأسباب وغيرها يستطيع أضعف مؤمن يقرأ هذه الكلمات أن يقول واثقاً : « وأسكن فى بيت الرب إلى مدى الأيام .

يبدو أن هذه الكلمات تشير إلى أن داود تمتع بالسماء قبل أن يصل إليها . فإنه لم يكن يرى بأن بيت الرب يصل إليه المؤمن فى المستقبل ، بل هو ممكن الوصول إليه فى الوقت الحاضر . فى مزمور آخر يتحدث عن السكن فى ستر العلى (مز ٩١ : ١) . مزمور آخر أيضاً يستخدم هذه الكلمات الرائعة : « واحدة سألت من الرب وإياها ألتمس ، أن أسكن فى بيت الرب كل أيام حياتى لكى أنظر إلى جمال الرب وأتفرس فى هيكله » (مز ٢٧ : ٤) .

هل هنالك شك فى أن هذه الصلاة الحارة قد أُستجيبت ، أو أن قصد قلبه قد تحقق ؟ لا شك فى أنه - سواء فى قصره فى جبل صهيون أو منفياً فى البرية القاحلة وراء الأردن - كان دائماً يسكن فى بيت الرب ناظراً إلى جماله ومتفرساً فى هيكله ومتسائلاً

عن إرادته . ليس بيت الرب إلا الوجود فى حضرة الرب ، أن يتحقق المؤمن من وجوده دواماً فى حضرة الرب ، أن يتحقق من أن الرب يحيط به من كل ناحية ويظلله بعنايته .

لماذا لا نبدأ نحن أيضاً بأن نسكن فى بيت الله بهذا المعنى المقدس المبارك ؟ وهكذا تبدأ سماؤنا لا فى اللحظة التى فيها ندخل أبواب المدينة ، بل فى اللحظة التى نبدأ بأن نغسل ثيابنا ونبيضها بدم الخروف . إننا فى كل زمان وفى كل مكان نستطيع أن نجد مسكننا فى الله الذى كان البيت والملجأ والمسكن لكل شعبه فى كل الأجيال . فى كل زمان وفى كل مكان نستطيع أن نختبىء فيه وقت الزوابع والعواصف . فى كل زمان وفى كل مكان نستطيع أن نجعل طبيعته ليس فقط حصننا وملجأنا القوى بل أيضاً هيكلنا . ليت الروح القدس يعين كل واحد منا لكى نستطيع أن نسكن فى بيت الرب كل ساعة وكل يوم ، حيث تُمسح الدموع حالما تُسكب ، وحيث لا تستطيع هموم الحياة وارتباكاتها أن تقتحمه ، وحيث يقود الراعى الصالح قطيعه بصفة مستمرة فى المراعى الخضراء فلا يجوع ، وبجانب مياه الراحة فلا يعطش ، وفى الأودية العميقة الرطبة

فلا تضربه الشمس فى النهار ولا القمر فى الليل . هنا نجد السماء قبل أن نصل للسماء .

فلنحرص إذاً على أن نعيش فى هـذا المستوى السماوى .

هنالك مستويات كثيرة يمكننا أن نختارها لنعيش فيها . هنالك مثلاً مستوى المعيشة فى الحدود الضيقة للبيئة التى نختلط بها ، أو مستوى المعيشة كما يعيش الآخرون ، أو مستوى الحياة العادية التى يحياها أغلب البشر . هذا لا يليق بأولئك الذين يسعون لكى يدركوا ذاك الذى لأجله أدركهم المسيح يسوع .

لكن هنالك مستويان يجب أن يحتلا تفكيرنا بصفة خاصة ، ويجب أن نختار أحدهما . الأول هو المستوى الذى فيه نعيش فى المسيح ، والثانى هو مستوى اختباراتنا أو الحياة العاطفية . من جهة الأول نحن ننتقل فعلاً ـ عن طريق الموت ـ إلى القيامة من الأموات والصعود إلى السماء ، ونجلس فعلاً فى النور الذهبى الذى يشع من عرش المسيح . ومن جهة الثانى ، الذى يتذبذب مع كل تغيير فى الجو أو فى الطبيعة ، فنحن نُرفع فوق قمة الموجة إلى الشمس المشرقة ، وبعد قليل نُطرح متعبين محطمين على الرمال

التى تركتها الأمواج تاركة إيانا بعيدين عنها .

أما المستوى الأول فهو الذى يريدنا الله أن نعيش فيه . أما الثانى فهو الذى نختاره لأنفسنا ، وبئس الاختيار . ولا عجب إذا منينا بالفشل واليأس . لقد استبدلنا الحلو بالمر ، واستبدلنا الأبدى بالزمنى ، واستبدلنا أساسات الله الثابتة الراسخة غير المتغيرة كمحبته ، بالواهنة المزعزعة .

إنه لسؤال خطير ذلك الذى يجب أن يوجهه كل واحد لنفسه : « ما هو مستوى حياتى؟ هل هو مستواى أنا ، أو مستوى أخى ، أو مستوى الله ؟ هل أعيش على أساس أننى قمت من الأموات وصعدت إلى السماء ، الخطية والموت خلفى ، بينما نور الأبدية فوقى ؟ » . يحاول الكثيرون منا مع الأسف أن ينزلوا بمستوى تقديرهم للحياة إلى اختباراتهم الوضيعة المنخفضة ، بدلاً من أن يسعوا للسمو بمستوى اختباراتهم إلى سمو الحياة فى المسيح .

عندما يقوم الإيمان بعمله اللائق فإنه يعمل أمرين . أولاً : إنه يطالب بالموقف الذى هو من حقه ـ ولو لم يحس به ـ والذى وعد به الله فى كلمته . ثانياً : إنه يمسك بقوة الله ليجعل هذا الموقف

حقيقة فى اختباراته كل يوم وكل ساعة.

إننا لا نشعر دواماً بأننا فى الموقف الذى تضعنا فيه كلمات الرسول النارية . فى (رو ٦ ، أف ٢ ، كو ٣) يؤكد الرسول بأننا قد قمنا من الأموات ، وجلسنا على العرش ، ونملك مع المسيح ، وبأن أعداءنا وأعداءه تحت أقدامنا . والإيمان يتمسك بتعاليم كلمة الله الصريحة هذه ، ولا يعتمد على الشعور وعلى ما نحس به ، بل يتمسك بكلمة الله كحقيقة . بل إن الإيمان يذهب إلى مدى أبعد . إنه بصفة مستمرة يتمسك بقوة الله المقتدرة ، القوة التى أقامت المسيح من قبر يوسف الرامى وأجلسته عن يمين العظمة فى السموات . وفى وسط هذه القوة يمشى عابراً الأمواج الثائرة ، ويتسلق الهواء ويتمسك بموقفه كأنه على العرش ، ويتحدى كل هجمات الجحيم . من المستحيل أن نعيش حياة الصعود أو حياة السماء ، التى هى من نصيبنا يقيناً ، دون قوة الصعود الإلهية . وهذه فى متناول الإيمان (أف ١ : ١٩) .

إنه من الضرورى أن نطلب معونة الروح القدس ليحفظنا فى حياة التسليم والإيمان هذه ، وليسكب فى حياتنا نعمة الله بصفة

مستمرة . هو روح التذكير ، الذى يحفظنا فى حالة تذكر مستمرة ، والذى يحفظنا فى ساعة التجربة ، ويذكرنا بكل شىء (يو ١٤ : ٢٦) .

إن عشنا هكذا صارت الحياة سعيدة نافعة ، وصيغ تاريخها فى مزمور ، كالمزمور الذى أنشده داود الراعى والملك منذ عدة أجيال خلت . قد تبدأ قصة رعاية الراعى بخروف ضال . لكنها لن تبقى بصفة مستمرة فى هذا المستوى ، بل تصعد وتحلق وتترنم قرب باب السماء ، وتصرف أيامها فى مستوى تلك الأراضى المرتفعة المنيرة التى لها الله نفسه شمس ، وأخيراً تعبر إلى بيت الله المجيد ، الذى يستطيع كل ساكن فيه أن يؤكد دون أقل تردد أو خوف قائلاً : « وأسكن فى بيت الرب إلى مدى الأيام » .